حوار الأديان

خدعة أم وسيلة للتعايش السلمى

obeikandl.com

obeikandl.com

أصبح الخطاب الثقافى فى عالمنا العربى بوجه عام مُوَجَّها من الخارج ؛ فالغرب يصدر لنا بين الحين والآخر مصطلحات ثقافية ، ومنطلقات فكرية لننشغل بها ، إن تفسيراً وتوجيهاً وتأويلا ، وإن دفاعاً عن النفس ، وتوسلاً وتوددا بأن مفهوم هذا المصطلح ، أو ذاك ، بعيد عن هويتنا وتعاليمنا ، محاولين -- بأسلوب التوسل الذى قد يصل أحياناً إلى المذلة والمسكنة -- إقناعهم بأننا لسنا متشددين ، ولا عدوانيين ، ولا متطرفين . وأحياناً يذهب البعض من مفكرينا إلى أقصى حد ممكن ليقنعهم بأننا متحضرون ، حتى ولو أدى الأمر إلى التنصل من مسلمات دينية ، والتبرؤ من أساسيات فى منظومتنا الثقافية ، والابتعاد عن عادات وتقاليد تعتبر ركائز أساسية فى تكويننا الثقافى والدينى .

الأصولية

صدر الغرب لنا بالأمس القريب مصطلح : " الأصولية " -- وهو ترجمة لكلمة : Fundamentalism -- مشوباً بالتطرف ، وعدم الاعتراف بالآخر ، ورفض كل ما هو جديد ، وإعلان الحرب على الحضارة الحديثة ، مستهدفاً تدميرها ، ومحوها من الوجود ، وأوهمونا بأن مصدر ذلك كله هم المسلمون الذين يجاهدون فى سبيل الله بالأسلحة والمتفجرات لإعادة بناء الدولة الإسلامية بالصورة التى كانت عليها فى صدر الإسلام . شنت الصحافة الغربية حرباً إعلانية على المسلمين متهمة إياهم بأنهم أصوليون يحاربون الحضارة الحديثة ، ويعملون على تدميرها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فتجاوب مثقفونا مع رجع صدى

هذه الحملة ، محاولين التبرؤ من الأصولية ، وممن يدَّعون بأنهم أصوليون ، وداروا بذلك فى فلك التيار الغربى ؛ فكلما ظهر على ساحة الأحداث مسلم يدافع عن دينه ، اتهموه بالأصولية حتى ظن كثير من الناس أن صفة الأصولية وصمة عار ينبغى على المرء التبرؤ منها ، حتى لا يوضع اسمه فى قائمة المطاردين من " العدالة الدولية " ، مع أن الحقيقة التى كان يجب على مثقفينا أن ينتبهوا لها : هى أن كل مسلم يحافظ على دينه ، ويلتزم بتعاليمه هو **أصـــولى** ، لأنه يتمسك بما جاء فى المرجعيات الأصلية للإسلام ، وهى : القرآن الكريم ، والسنة النبوية . فالمفهوم العربى للأصولية يختلف عن المفهوم الإسلامى ، لأن الأصولية فى الغرب هى : حركة ظهرت فى أمريكا فى عام ١٩١٨م رداً على من كانوا ينقدون الإنجيل من الليبراليين ورجال الدين المتحررين . وأتباع هذه الحركة من عامة المسيحيين ، فهى رد فعل للهجوم الذى كان موجها إلى الإنجيل بقصد التشكيك فى صحته لزعزعة الإيمان به .

فالأصولية فى الإسلام ليست حركة كما كان الحال فى المجتمع المسيحى الأمريكى فى عام ١٩١٨م ، وإنما هى وصف لكل مسلم يتمسك بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، سواء كان ملتزما بظاهر النص ، أم كان مؤوِّلا له كى يتلاءم مع ظروف العصر ومتطلباته .

وهناك الكثير من المصطلحات التى يرددها الغرب عن الإسلام ، سواء كان ذلك عن جهل بتعاليم الإسلام ، أو سوء نية وقصد ، ولذا يجب على المسلمين أن يصححوا للغرب هذه المفاهيم بكل الوسائل ، ومن أهم هذه الوسائل :

الحـــوار

فالحوار فى حد ذاته مطلب حيوى ، وضرورة قصوى ، لتصـــحيح هـــذه المفاهيم التى يتهم الغرب الإسلام — والمسلمين — بها ، من قبيل : أنه الدين الذى يدعو إلى القتل والاغتيال تحت شعار " **الجهاد** " ، وأنه الدين الـــذى يـــرفض معتنقوه التعايش مع " **الآخر** " ، فالمسلم فى ساحة التعامل مع الآخر إما قاتل أو مقتول ، وأن المسلمين — وخاصة العرب — شعوب متخلفة ؛ لايدركون للتقدم معنى ، ولا يعرفون أسس الحضارة فى السلوك والقيم ؛ لأنهم مرتبطون بالإسلام ، ذلك الدين القائم على الهمجية فى التفكير والسلوك ، ومعاداة التقدم العلمـــى فى أى مجال ، فهو دين الجمود والارتباط بالماضى ، والاستهانة بالحاضر ، وتجاهـــل المستقبل .

كل هذا يحتاج من المسلمين إلى بذل الجهد لتصـــحيح هـــذه المفـــاهيم ، ولعرض التعاليم الإسلامية الصحيحة فى ثوبها الأبـــيض الناصـــع ، بعيـــداً عـــن تشنجات المتشددين ، وشطحات المتطرفين ، وسلوكيات الجاهلين . ولكن قبـــل أن نخوض فيما يجب أن يكون عليه الحوار مع " **الآخر** " ، ونرسم موضـــوعاته ، ونوضح أهدافه ، يجب أن نركز أولا على الحوار مع " **النفس** " ، ونقصـــد بـــه الحوار مع رموز التيارات والمذاهب الإسلامية داخل المجتمعات الإسلامية ، حـــتى يمكننا أن نرتب البيت من الداخل قبل الحديث مع " **الآخر** " ، ذلك أننا نواجـــه دائماً فى لقاءات عديدة بسؤال يكاد يكون بألفاظ واحدة ، ألا وهو : عـــن أى إسلام تتحدثون ؟ عن الإسلام الشيعى أم السنى ؟ عن التيار السلفى ، أم عن تيار المجددين ؟ عن مفهوم طالبان أم عن تصور تنظيم القاعـــدة ، وجبهـــة الإنقـــاذ الجزائرى وجماعة التكفير والهجرة وأمثالها ؟ عن المتمسكين بظـــاهر النصـــوص

المنكفئين على الماضى ، أم عن " **العقلانيين** " المتهمين من السلفيين بالزندقة ؛ لأنهم يحاولون التوفيق بين النصوص المقدسة ومعطيات العصر ، ومتطلبات الحضارة الحديثة ؟

ومما لاشك فيه أن تصحيح هذه المفاهيم الذى علقت بذهن " **الآخر** " نتيجة التمزق والتفرق فى ساحة الفكر الإسلامى ، يأخذ وقتاً طويلا ، وجهداً حارقاً ، الأمر الذى يحتم علينا أن نتحاور مع بعضنا أولا ، كى نرسم خريطة الحوار مع " **الآخر** " ، حتى ولو لم نصل من هذا إلا إلى تحديد أهداف الحوار مع " **الآخر** " . فتحسين الصورة الإسلامية بقدر الإمكان على الساحة الدولية أمر مهم ، خاصة وأننا نملك الأسس التى يمكن أن نتفق عليها ، ألا وهى : **القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة** ، إذ يمكننا أن نختار الآيات التى ترسم لنا الأسلوب والمنهج الذى نتفق عليه ، مسترشدين بقوله تعالى : "... **وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ....." [الأنفال : ٤٦].

منهج الحوار مع النفس

الحوار بين السنة والشيعة
ضرورة دينية وحتمية قومية

تحتم الأحداث الدولية على المسلمين أن يتحدوا ، ويقفوا صفاً واحداً ، السنى بجانب الشيعى ، ناسين خلافاتهم ، متجاوزين تباين آرائهم فى بعض المسائل التى لا تمس الاعتراف بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ورسولا ، وبالقرآن الكريم — وحى الله — دستوراً ، فالاختلاف فى التفسير والتأويل وقبول بعض الأحاديث ورفض البعض الآخر يمكن التجاوز عنه ، وهو لا يفسد للود قضية فى هذه الظروف ، خاصة وأن الصراع الدولى يوجب عليهم الوقوف صفاً واحداً ، وإلا أُكِلوا واحداً بعد الآخر ، ويومئذ ينطبق عليهم المثل الشعبى القائل : " أُكِلْتُ يوم أن أُكِلَ الثور الأبيض " .

ينبغى أن ندرس التاريخ دراسة جيدة ، فتتعلم وندرك أن من الأسباب الرئيسية لضياع الأندلس ، هو اختلاف المسلمين وتناحرهم ، وتحالف بعضهم مع العدو ضد إخوانهم المسلمين ، مما فتت قواهم ، فأصبحوا لقمة سائغة ، التهمها العدو ، الواحد تلو الآخر ، حتى استؤصلت شأفتهم من الأندلس . لانريد أن تتكرر هذه المأساة ، ولا يحب أحد من السلمين أن يرى هذا المشهد مرة أخرى ، ولذلك يجب أن يتحاور أهل السنة مع الشيعة ، ليصلو إلى تكوين جبهة صلبة ، تتمكن من مقاومة هذا الزحف الجارف على ديار الإسلام ، الذى لن يبقى — لا قدر الله — على سنى ، ولا على شيعى ، فلنبدأ الحوار السنى الشيعى اليوم قبل غدٍ ، على أن تشتمل أجندته على النقاط التالية :

١- إحياء لجنة التقارب بين المذاهب التي دعا إليها في منتصف القرن العشرين : الشيخ محمود شلتوت ، وآية الله القمي ، بحيث يكون نشاطها :

- إبرازَ مسائل الاتفاق في الفقه والتفسير والحديث ، في صورة كتب وأبحاث تُنْشَر بين أنصار الطائفتين لخلق وعي عام بضرورة الوقوف جبهة واحدة أمام الأخطار الخارجية.
- الدعوة إلى نسيان الماضي بما فيه من إحقاد وكراهية بين التيارين .
- التركيز على وجوب التعاون والوحدة بين الفريقين ، كي يستطيعوا مواجهة الهجمات الشرسة التي يتعرضون لها من مختلف القوى العالمية.

٢- عقد اتفاقات ثقافية بين الجامعات الإسلامية في المجتمعات الشيعية ونظيراتها في المجتمعات السنية ، لتبادل المنح الطلابية ، حتى يتخرج جيل يعرف كلٌّ ماعند الآخر من تفسيرات وتأويلات للنصوص الدينية ، وكذلك لتبادل زيارات الأساتذة والباحثين لخلق جو علمي أكاديمي بين الفريقين ، بعيداً عن المزايدات المذهبية ، والانفعالات الوجدانية .

٣- عقد ندوات ومؤتمرات للحوار بين الجانبين ، يركز فيها على التواصل والتعاون ، ويعلن فيها أن كلاً يعترف بالآخر ، ويحترم رأيه ، حتى يكون دافعاً لأصحاب القرار على اتخاذ ما يلزم للتقارب والتعاون على المستويات : الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، كي يظهر المسلمون أمام العالم بأنهم جبهة واحدة ، وأنهم يتعاملون مع بعضهم بأسلوب حضاري ، دعا إليه الإسلام ، وإن اختلفت وجهات نظرهم في تفسير وتأويل النصوص المقدسة . ومما لاشك فيه أنه ، إن حدث هذا، ستكون

له آثار بعيدة المدى فى مجال الحوار الدينى مع غير المسلمين على المستوى الإقليمى والدولى .

٤- تدريس المذاهب الإسلامية – الفقهية ، والكلامية ، والفلسفية وغيرها – بشعبتيها : السنى والشيعى – فى كل الجامعات الإسلامية .

ولن يتحقق هذا إلا إذا قام زعماء المؤسسات الدينية ، وعلى رأسهم – بل وفى مقدمتهم – شيخ الأزهر بمبادرة تجمع زعماء الطائفتين – الشيعة والسنة – فى العراق على مائدة المفاوضات ، بحيث ترتكز على الأسس التالية :

* نسيان الماضى وتجاوز ماحدث من مواجهات عبر التاريخ الإسلامى .

* جمع الطائفتين حول هذه المبادئ :

أ – الإيمان بالله الواحد .

ب – التصديق برسالة محمد ﷺ .

جـ – الإيمان بنصوص القرآن الكريم ، بل بكل حرف من حروفه .

د – قبول السنة العملية ، والأحاديث المتواترة .

هذه هى الأصول التى تجمع الطوائف الإسلامية كلها ، وما عدا هذا من تفسير لنصوص القرآن الكريم وفهمه ، واستنتاج للأحكام الشرعية ، وتنوع فى قبول الحديث ورفضه على أساس الشك فى صحة نسبته إلى النبى ﷺ فهو خلاف فى الفروع ، لايفسد للود قضية .

فإذا لم يقم زعماء المؤسسات الدينية بهذا الواجب ، فهم مفرطون فى الالتزام بتعاليم القرآن الكريم التى نص عليها قوله تعالى :

" وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن

فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ....." [الحجرات : ٩ – ١٠] .

وليتذكر المسلمون ما حدث لإخوانهم فى الأندلس ، حيث كان الأخوان يتقاتلان ، وكان يستعين أحدهما بالعدو – بل كان العدو هو الذى يشجعه على ذلك – على أخيه ، حتى أكله العدو هو بعد القضاء على أخيه : مما أضاع سلطان المسلمين كلهم فى الأندلس ، واندثر ملكهم . فما أشبه الليلة بالبارحة ، وصدق الله تعالى إذ يقول :"..... وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ....." [الأنفال : ٤٦].

الحوار بين التيارات والجماعات الإسلامية

ويتضمن :

لقاءات بين رموز هذه التيارات والجماعات ، تحت إشراف الأزهر – بصفته الجامعة التى تعبر عن جميع المذاهب الإسلامية ، لأنها تدرسها دون تفرقة بينها – للنظر فيما يجب عمله فى نشر الدعوة ، بحيث يركز على :

- نبذ الخلافات ، والعنف ، والتطرف .
- رسم منهج عام يلتزم الجميع به لخدمة الإسلام فى الداخل والخارج
- الاتفاق على الخطوط العريضة التالية :

أ- احترام الآراء المخالفة .

ب- عدم تكفير الآخر ، إلا إذا أنكر نصاً من نصوص القرآن الكريم ، أو ما علم من الدين بالضرورة . ولا يحكم بهذا التكفير إلا الجهات

الدينية الرسمية ، بعد البحث والتدقيق ، ويكون الرأى فى ذلك بإجماع الآراء ، عملاً بقول رسول الله ﷺ : " **إدرؤوا الحدود بالشبهات** "[1] ، فمعارضة رأى واحد من العلماء يعتبر شبهة ، **مع العلم بأن جواز إقامة حد الردة مختلف فيه بين العلماء .**

جـ- توحيد الآراء فى المسائل العامة ، والقضايا الدولية ، ويكون اتفاق الأغلبية على الفتاوى مُلْزِماً للجميع ، يلتزمون به فى فتاواهم للعامة ، وتصريحاتهم لوسائل الإعلام . أما فى قاعات البحث ومدرجات التدريس فيجوز عرض جميع الآراء للطلبة ، وإن خالفت ماارتأته الأغلبية للإفتاء به ، لأن التعليم والتعلم ينبغى أن يتناول كل الآراء على الساحة الفكرية .

د- احترام الرموز والمؤسسات الإسلامية رغم اختلاف الرأى معهم .

الحوار مع العلمانيين

تدور معارك فى كثير من الأقطار الإسلامية بين العلمانيين وبين رموز الفكر الإسلامى حول الأخذ بمبدأ الديمقراطية الغربية ، إذ يرى العلمانيون أن هذا النظام هو النموذج المثالى لحكم الشعوب فى العصر الحديث ، ذلك أنه يتيح لكل فرد فرصة اختيار نوابه عن طريق تعدد الاتجاهات ، وتنوع البرامج الحزبية ،

---

[1] نصب الراية: الحافظ الزيلعى / تخريج أحاديث الهداية ٢٢٣/٣ ــ تلخيص الحبير ٥٦/١ رقم ١٧٥٥ ، ونسبه إلى الترمذى ، والحاكم ، والبيهقى من طريق الزهرى

فهو مخير بين عدة خيارات ، يختار منها ما يلائم حياته ، وما يحقق مصلحته ، وما يتفق مع نظرته للحياة ، وموقفه من الوجود كله ، فإذا مافاز اتجاه برأى الأغلبية ، فعلى الجميع أن يسلموا بأحقيته فى تسيير دفة الحكم ، مع إعطاء الاتجاه المعارض حق مناقشة القوانين واللوائح التى يتقدم الحاكمون بها إلى المجلس المنتخب لإقرارها كأساس لتطبيق النظام فى المجتمع ، وبهذا لا ينفرد شخص بتقرير مصير أمة ، ولا يكون لمجموعة ، أو هيئة ، أو حزب حق الاستيلاء على السلطة ، بدون تفويض من الشعب ، كما لا يجوز للسلطة التنفيذية اتخاذ أى إجراء يتعلق بمصالح الناس ، إلا إذا أجازه من اختارهم الشعب ليمثلوه فى توجيه أمور الدولة . فالتوازن بين السلطة التشريعة والسلطة التنفيذية يحفظ نظام الدولة من التداعى والانهيار ، والاعتراف بحق نواب الشعب فى مساءلة رجال الإدارة والحكم فيما يمارسونه ، بحكم وضعهم الوظيفى ، يحمى المواطنين من قسوة الحكام وظلمهم ، ويحافظ على مصالحهم ، ويؤمن حياتهم ، ويرسى قواعد الاستقرار فى الأمة .

بينما يرى بعض رجال الدين أن هذا من النظم التى أقرتها العلمانية ، وما دامت العلمانية لا تعترف بوجود الدين — كما هو الحال فى العلمانية المتطرفة — أو لا ترى بأساً من وجوده — كما هو الحال فى العلمانية المعتدلة – غاية الأمر أنه ينحصر فى ظلها فى مجال العبادات ، فليس له سلطان على التشريعات واللوائح التى تضبط مسيرة الحياة ، وإنما مركز التشريع ومصدره ، هو البرلمان المنتخب من الشعب ولا مصدر غيره ، فلا يجوز لشعب مسلم أن يقر هذا النظام كنموذج له فى الحكم ، لأن المشرع هو الله ، وليس البرلمان . ثم يتطرق المتطرفون من رجال الدين إلى مظاهر هذا النظام المتعددة فيحرمونها كلها ، إذ يرون أن نظام الأحزاب ليس إسلامياً لأنه يفرق الأمة شيعاً وأحزاباً ، ولذلك فهو غير جائز ، كما أن تسمية البرلمان بالهيئة التشريعية حرام ، لأن المشرع هو الله .

ربط العلمانيون — على أساس علمى تاريخى — هذا الموقف بما كان عليه الحال فى أوربا إبان العصور الوسطى ؛ إذ تصوروا وضع السلطة البابوية آنذاك ، يوم أن كان البابا والمطارنة والقسس يحلون مايشاءون ، ويحرمون مايشاءون ، ويدخلون الجنة من يريدون ، ويقذفون فى النار من يكرهون ، وتراءت فى أذهانهم صور صكوك الغفران والحرمان ، حيث قاسى منها الحكام والأمراء الكثير من المتاعب والآلام ، بل إن الشعوب نفسها اكتوت بنارها ، وذاقت جحيم أوارها وسعيرها ، فتصوروا — أى العلمانيون — أن تطبيق الشريعة الإسلامية فى مجال الحكم والإدارة سيخلق مثل هذا الوضع فى المجتمع الإسلامى ، حيث يتحكم رجال الدين فى كل شيء دون أن يكون لأحد حق الاعتراض أو المناقشة ، لأنهم محصنون بسياج قدسى ، لا يجرؤ أحد على تخطيه ، اللهم إلا من خلع رداء الإيمان .

فأى مسلم يستطيع أن يضع نفسه فى هذا الموقف؟ ..... لا أحد.

وتكون النتيجة القضاء على كل صوت معارض ، فتترعرع الديكتاتورية الدينية ، وتضيع حقوق الناس بين فكيها ، وتهدر كرامة الإنسان تحت أقدامها ، كما حدث فى القرون الوسطى ، حيث كانت الكنيسة تبسط سلطانها على جميع مجالات الحياة .

إن هذه الصورة لاوجود لها فى الإسلام على الإطلاق ؛ إذ لايعرف فى تعاليمه هذا المصطلح المسيحى : **رجل دين ، وغير رجل دين** ، لأن الكل فى ظل الإسلام مسلمون ، لافرق فى الحقوق والواجبات بين رجل وآخر ، وليس فى الإسلام عصمة لأحد من الخطأ ، كما هو الحال فى المسيحية بالنسبة للبابا ، فكل مسلم خطّاء ، وما دام الأمر كذلك فلكل أحد الحق فى المعارضة ، لأنه لا يوجد رأى لايجوز معارضته ، وبهذا تنتفى شبهة العلمانيين فى إمكان قيام ديكتاتورية

دينية ، إذ مادام الإسلام قد أعطى كل مسلم الحق فى المعارضة ، فلن تقوم فى ظله ديكتاتورية .

أما بالنسبة لما يراه بعض رجال الدين من تحريم النظام البرلمانى ، لأنه يدعى لنفسه حق التشريع ، بينما المشرع هو الله ، فلا ينبغى أن يفهم وضع البرلمان على هذا النحو ، ذلك أن تعاليم الإسلام ومبادئه العامة لايجوز المساس بها ، فهى بمثابة الدستور الذى لايجوز للبرلمان أن يوافق على تشريع قانون يتعارض مع مبادئـــه . فالتشريع يدور فى أمور فرعية تندرج تحت ظل مبادئ الدستور العامة ، فإذا أردنا أن نبين طبيعة عمل البرلمان فى ظل تطبيق الشريعة الإسلامية ، فإننا نرى أنهـــا لا تخرج عن إقرار تفسير لنصوص القرآن الكريم دون آخر ، وما أكثر آراء العلمـــاء فى التفسير والتأويل ، فنصوص القرآن الكريم لا يجوز الخروج عنها صـــراحة ، كما هو الوضع بالنسبة لعدم الخروج عن الدستور ، وإنما يجوز لأعضاء البرلمـــان إقرار قانون يتفق مع رأى عالم ، ورفض رأى عالم آخـــر ، وبهـــذا يكـــون دور البرلمان هو الاختيار والانتقاء من آراء العلماء بما يناسب طبيعة الحياة وظـــروف العصر .

يجب أن يتحاور رجال الدين مع العلمانيين ، كى يزيلوا ماعلق فى أذهانهم من تصورات غير صحيحة عن علاقة الإسلام بمعطيات العصر ، كما وضح مـــن العرض السابق ، وحتى لا يقتنع الشباب بآرائهم ، فيعتقدون أن بين الإسلام وبين الحضارة الحديثة خصومة لا يمكن تجنبها ، أو أن مبادئ الإسلام لا تساير العصر . وينبغى أن يقوم حوار أيضاً فى هذا الصدد مع من يسمون أنفسهم — أو يسميهم غيرهم — بـــ " الإسلاميون الثوريون " أو بـــ " الإسلام اليســـارى " ، لأن فى بعض تصوراتهم جنوح عن المبادئ العامة للإسلام ؛ فهم يفسرون بعض آيـــات القرآن الكريم بما يبعدها عن روح الإسلام وتعاليمه ، وعما استقر عليه المسلمون

من أحكام لاتتغير بتغير الزمان والمكان ، ويتزلون إسقاطات على بعض الأحداث فى صدر الإسلام بما يشوه تاريخ الرموز الإسلامية ، ولذا وجب الحوار معهم حتى لا يتصيد أعداء الإسلام من آرائهم ما يخدم دعوتهم لمناهضة الإسلام .

الحوار مع الآخر

الحوار مع الآخر ظاهرة إنسانية ، فهو ملازم للفكر والثقافة ، أياً كان نوع هذه الثقافة ودرجة رقيها ، فهو وسيلة اتصال الإنسان مع أخيه الإنسان منذ الحياة البدائية حتى عصر ما بعد الحداثة ، فحيثما اجتمع اثنان فى مكان ما ، إلا وكان الحديث بينهما أول خيط يربطهما ، حاملاً تبادل المعلومات والأخبار ، أو موجهاً الاتهامات والتهديدات إن كان اللقاء لتصفية الحسابات أو لغرض سيطرة أحدهما على الآخر وسلب مامعه من أملاك ومتاع . كذلك الحال حينما ارتقى الإنسان ، وظهرت التيارات الفكرية المختلفة ، والمذاهب العقدية المتباينة ، كان الحوار أحد أهم أسباب النزاع الفكرى ، ورغبة كلٍّ فى غلبة فكره وعقيدته على الآخر ، إذ يحرص كل صاحب فكر أن ينشره بين الناس ، فيلتقى بهم ويشرح لهم أفكاره ، ويحاول إقناعهم بما لديه من مسلمات ، وهم بالتالى — إذا كان لديهم فكر مختلف — يحاورونه ، الحجة بالحجة ، والرأى بالرأى .

ولم تخرج رسالات الأنبياء عن هذه الظاهرة ، فلقد حاور الأنبياء والرسل أقوامهم ، حين عرضوا عليهم رسالاتهم ، وشرحوا لهم مبادئها ، طالبين منهم الإيمان بها محذرين من عاقبة عنادهم وكفرهم ، وقد سجل القرآن الكريم أساليب عدة من هذه الحوارات التى دارت بين الرسل وأقوامهم ، فعلى سبيل المثال نقرأ قوله تعالى عن حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه :

" وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ " [الأنبياء : ٥١ - ٥٦]

وحوار نوح مع قومه :

" وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ • أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ • فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ " [هود ٢٥-٢٧]

وغير ذلك من الآيات المتعددة التي تبين المواقف المختلفة التي حاور فيها الرسل والأنبياء أقوامهم حول القضايا العقدية ، والمبادئ التربوية ، والمشكلات الاجتماعية التي جاء فيها وحي الله بتعاليم ومبادئ إلهية داعيا البشر إلى اعتناقها واتباعها في جميع مجالات حياتهم ، لتستقيم حياتهم ، ولينالوا رضا الله وعفوه ، فيثيبهم على إيمانهم وعملهم .

أهمية الحوار مع الآخر
فى الإسلام

لم يرد وجوب الحوار مع الآخر فى أى دين من الأديان كما ورد فى الإسلام ، وكذلك لم يهتم أى مذهب من المذاهب الفكرية بالحوار مع الآخر اهتمام الإسلام به ؛ فقد أمر الله رسوله ﷺ بالحوار مع أهل الكتاب ، مما جعل الحوار الدينى مبدأً أساسيًّا فى منهج الدعوة إلى الإسلام ، يقول الله تعالى : " **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ** .... " [آل عمران : ٦٤] وبهذا كان الحوار مع الآخر فريضة من فرائض الإسلام ، التزم به النبى ﷺ ، فأجرى حوارات مع الوفود التى وفدت عليه فى المدينة ، والتى بلغت أكثر من ثلاثين وفداً فى عام واحد ، سمى **عام الوفود** ، وكان من أشهر تلك الوفود ، وفد نصارى نجران ، الذى قدم المدينة بقيادة أسقفهم أبى الحارث ، فتحاور معهم النبى ﷺ . ومما يدل على سماحة الإسلام وتعامله مع الآخر بأسلوب حضارى فى ذلك العصر — الذى لم يعرف المتخاصمون فيه إلا السيف لغةً للحوار — أنه ﷺ سمح لأعضاء الوفد أن يقيموا صلاتهم فى أحد أركان مسجده ﷺ ، وتلك لفتة لم يُعْرَف مثلها فى تلك العصور ، ونادراً — بل يكاد يكون من المستحيل — أن يحدث مثلها فى هذا العصر — فى القرن الواحد والعشرين — الذى يفخر أبناؤه بأنهم قطعوا شأواً كبيراً فى الحضارة ، مما جعلهم يتعاملون مع الآخر بأسلوب مهذب وراقٍ .

ومن المبادئ الإسلامية التي تدعو المسلم إلى التعايش مع الآخر والحوار معه واحترام رأيه :

- الحرية ، فقد قدسها الإسلام ، ودعا إلى كفالتها ، ولو أدى ذلك إلى عدم الاعتراف به ديناً يقول الله تعالى : " **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ....**" [البقرة : ٢٥٦] ويقول : "..... **فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ....**" [الكهف : ٢٩] ، " **وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ** " [يونس : ٩٩]

فالله يبين لرسوله ﷺ في هذه الآيات أن الإيمان متروك لحرية الإنسان ، فلا ينبغي أن يمارس أحد الإكراه لحمل الناس عليه ، لأنه لو شاء الله لأكرههم على الإيمان ، ولكنه تركهم بحريتهم ليكون الإيمان نابعاً من ذات الشخص نفسه حتى يثمر إيمانه ، لأن العمل لا يكون نافعاً إلا إذا فعله الإنسان ، وهو في كامل حريته .

ولهذا نظر الإسلام إلى المجتمع نظرة شمولية ، فهو لا يفرق بين الناس على أساس معتقداتهم ، بحيث يسلبهم حريتهم بسبب هذه المعتقدات ، بل يكفل لهم أسس العيش في سلام واطمئنان داخل المجتمع الإنساني ، وأعطاهم حرية كاملة في ممارسة بناء المجتمع ، فلا زال قول عمر بن الخطاب ﷺ : " **متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً** " ناقوساً يرن في آذان كل المجتمعات البشرية ، معلناً أن المسلمين طبقوا قواعد الحرية كما أمرهم الإسلام ، واستنكروا كل ما من شأنه أن يسلبها من المجتمع ، لأنها أساس كيان الإنسانية ، ودعامة استقرار المجتمع على قواعد ثابتة ، لا تتزعزع أمام عواصف الدهر وتقلبات الأيام .

ومما يدل على سماحة الإسلام مع الآخر ، أن الرسول ﷺ عقد مع نصارى نجران عهدا مع بقائهم فى أماكنهم ، وإقامتهم فى ديارهم ، دون أن يكون معهم أحد من المسلمين ، وقد تضمن هذا العهد حمايتهم ، والحفاظ على حرياتهم الشخصية والدينية ، وإقامة العدل بينهم ، والانتصاف من الظالم . وقام الخلفاء من بعده على تنفيذه حتى عهد هارون الرشيد ، فأراد أن ينقضه ، فمنعه محمد بن الحسن ، صاحب الإمام أبى حنيفة . وفى هذا دلالة واضحة على روح التسامح فى معاملة غير المسلمين ، إذ حافظ على جرياتهم فى العبادة ، وفى إقامة شعائرهم الدينية من غير تضييق عليهم ، ولا تعكير صفو الجو الروحى لطقوسهم الدينية ، لأنه احترمها ، واتخذ من الإجراءات ما يحمى قدسيتها .

- تقبله للثقافات والحضارات الأخرى ، مما يدل على أن فكرة الصراع الحضارى لا وجود لها فى مبادئه وتعاليمه ، ويوضح نظرته العالمية الواسعة إلى الأديان والأجناس الأخرى ، ولهذا أقام حضارة كبرى أسهم فيها أهل هذه الأجناس والأديان فى كل ناحية من نواحى الحياة ، والفكر ، والفلسفة ، والأدب ، والفن ، والطب ، واللغة ، والتصوف ، وكانت تلك الحضارة تأليفاً وتوحيداً لكل الحضارات قبلها فى : الصين ، والهند ، وفارس ، والروم ، واليونان .

شيد المسلمون على كل هذه الأسس بناءً حضارياً ضخماً ، اشترك فيه العلماء من جميع الأجناس والأديان ، فكانت بحق حضارة لجميع أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ، ثم انتقل هذا التراث الحضارى إلى الأجيال اللاحقة ، فكان مصدراً للحضارة الحديثة ، وقد عبر أحد العلماء عن دور المسلمين فى بناء الحضارة الإنسانية بقوله : : " **إن المسلمين لم يحرصوا فقط على أن يكونوا ورثة الأنبياء ، بل ورثة الفلاسفة كذلك .**"

فالإسلام دين يحث أتباعه على الاتصال بثقافة الآخر والأخذ منها اتباعاً لقول رسول الله ﷺ : " **الكلمة (الحكمة) ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق به**[1] ، فهو لم يغرس فى نفوس المسلمين حقداً ضد أى طائفة أخرى من البشر تعتنق ديناً آخر ، ولم يحرم عليهم التزود بأى نوع من الثقافات الإنسانية ، ولم يفرض عليهم شيئاً يعزلهم عن غيرهم من أجناس البشرية ، ولم يأمرهم بإجبار أحد على اعتناق الإسلام : فكان بذلك ساحة ضمت جميع الناس ، وبوتقة صهرت جميع الثقافات ، ووادياً أمن فيه الناس على أنفسهم ، وعقائدهم ، وأفكارهم ، واطمأنوا على سلامة أموالهم وممتلكاتهم ، فنظروا إليه غير خائفين ، وفكروا فى مبادئه غير وجلين ، ودرسوا أحكامه فى جو من الحرية والديمقراطية ، فجاء اعتناق من اتخذه ديناً عن رغبة واقتناع ، وعاش فى ظل دولته من بقى على دينه آمناً مطمئناً ، يسعى إلى رزقه ، ويشارك فى مجالات الدولة المختلفة تحت راية الإسلام التى ترفرف معلنة أنها مظلة الإنسان ، من حيث هو إنسان ، لأنه عبد الله الذى أنزل هذا الدين على محمد ﷺ .

اتبع المسلون هدى رسول الله ﷺ فى هذا المجال فحاوروا أهل الأديان بالتى هى أحسن ، وتعايشوا معهم على أساس الأخوة الإنسانية ، فلم يجبروهم على اعتناق الإسلام ، ولم يضطهدوهم لمجرد أنهم يخالفونهم فى العقيدة ، بل رفعوا عنهم ظلم إخوانهم فى العقيدة واضطهادهم لهم ، فقد حدث أن عمرو بن العاص حين فتح مصر ، كان البطريرك المسيحى بنيامين مختفياً ، لأن وطأة استبداد البيزنطيين **المسيحيين** فى البلاد كانت عنيفة ، وطبقاً لنص تاريخ البطاركة : لما عرف عمرو بذلك كتب إلى أعمال مصر كتاباً يقول فيه : الموضع الذى فيه

---

[1] الترمذى ٥/٥١ رقم ٢٦٨٧ ، تهذيب التهذيب ١/١٢١

بنيامين بطرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله . فليحضر آمناً مطمئناً ويدبر حال بيعته وسياسة طائفته . فلما سمع بنيامين هذا عاد إلى الاسكندرية بفرح عظيم بعد غيبة ثلاثة عشرة سنة . منها عشر سنين لهرقل الرومى ، وثلاث سنين قبل أن يفتح المسلمون الإسكندرية.[1] ، ثم التقى عمروبنيامين " فلما رآه (عمرو) أكرمه . وقال لأصحابه : إن فى جميع الكور التى ملكناها إلى الآن ما رأيت رجلا يشبه هذا . وكان الأب بنيامين حسن المنظر جداً ، جيد الكلام بسكون ووقار . ثم التفت عمرو إليه وقال له : جميع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر أحوالهم ."[2]

لقد أرسى الإسلام قاعدة صلبة فى مجال التعامل مع الآخر ، باختياره أسلوب الحوار ، كى يوضح الفكر البشرى ويبين مدى صلته بالتراث الإلهى ، ولا يكون ذلك إلا باحترام الحرية فى التعبير ، وسماع ماعند الآخر ، وعرض مبادئ وتعاليم الإسلام عليه دون إكراه ، بل بالتفاهم والأدلة العقلية– وبالتعبير الإسلامى : " **بالحكمة .... وبالمجادلة بالتى هى أحسن** – ؛ إذ لا يمكن للشعوب أن تتقدم إلا بتبادل المعلومات ، ومناقشة القضايا : قضايا السلم والعدل ، وغيرهما من المشكلات التى يواجهها الإنسان فى مسيرة بنائه الحضارى ، والتعاون فيما بين الشعوب على أساس احترام الآخر ، ومعرفة ماعنده من مبادئ وقيم .

---

(1) وليم سليم : الحوار بين الأديان صـ ١٠٨ ، نقلا عن ساويرس ابن المقفع : تاريخ بطاركة الاسكندرية . طبعة افتس – الجزء الثانى .

(2) المصدر السابق صـ ١٠٩ . ويقول المؤرخ القبطى الأسقف يوحنا النقيوسى : " احترم عمرو أملاك الكنيسة ، ولم يقترف عملا يعاب عليه . فحيا أهل البلاد عهد السلام الدينى ، وإعادة نشاط الكنيسة الوطنية ، وأديرة وادى النطرون ودير أنبا مقار ، وجاء الرهبان أفواجاً يؤكدون إخلاصهم للقائد العربى " حسين فوزى : سندباد مصرى صـ ١٦٤ .

ضرورة الحوار مع الآخر
فى العصر الحديث

أصبح الحوار مع الآخر ضرورة فى عالم اليوم ؛ لأن المجتمعات المعاصرة ضمت العديد من الأفكار والعقائد والمذاهب الفكرية ، بل إن المجتمع الواحد المحدود ، قد يضم أكثر من عقيدة ، ويعتنق أفراده أكثر من مذهب فى جميع المجالات : سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ...و...و...الخ ، ولذا كان الحوار فى حد ذاته مطلباً حيويًّا وضرورة قصوى ، وعلى الأخص :**حوار الأديان** ، لأن الدين لازال يلعب دوراً كبيراً فى حياة الشعوب ، إذ يرسم للفرد أسلوب حياته ، ويحدد له طبيعة العلاقة مع الآخر ، وبالتالى فهو عنصر أساسى فى استقرار المجتمعات ، ورسم حدود العلاقات بين الشعوب ، حتى فى المجتمعات التى أعلنت أن العلمانية هى أسلوبها فى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؛ فقد رأينا أن نزعة التعصب الدينى ، والتبشير بقيام صراع بين الحضارات على أساس ثقافى **ودينى** صدرت من مجتمع يعتبر نفسه زعيم العلمانية فى العصر الحاضر ، إذ أعلن صمويل هنتنجتون – وهو أمريكى نشأ على الثقافة العلمانية – فى كتابه " صدام الحضارات " أن الصراع فى العالم الجديد لن يكون أيديولوجياً ، أو اقتصادياً ، بل سيكون الانقسام الكبير بين البشر ، والمصدر الغالب للصراع **ثقافياً ، ودينياً** :

– مركزاً فى كثير من صفحات كتابه على أن الصدام بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية واقع لامحالة ، فهو – أى الإسلام – الخطر الماثل أمام

أعين الغرب " المتحضر " ، يبدو ذلك واضحاً من قول أحد المراقبين حسب زعمه : " **الكابوس الخاص للأوربيين هو الذكرى التاريخية (إغارة المسلمين فى أوربا الغربية ، والأتراك على أبواب فيينا)**" [1]

- ومبيناً لهم ما يحدث فى تركيا ، حيث يقول : " بالنسبة لتركيا – كما هو لدول أخرى كثيرة – أثار انتهاء الحرب الباردة بالإضافة إلى الخلل الناتج عن النمو الاقتصادى والاجتماعى قضايا أساسية عن " الهوية القومية والانتماء العرقى " ، وكان **الدين** هناك ليقدم الإجابة ، وأصبح الميراث العلمانى الأتاتوركى والنخبة التركية لثلثى قرن ، تحت النيران وبشكل متزايد . تجربة الأتراك فى الخارج أدت إلى إثارة عواطف الإسلاميين فى الداخل . الأتراك العائدون من ألمانيا الغربية " كان رد فعلهم على العداء هنا هو العودة إلى ما هو مألوف ، **وأن ذلك هو الإسلام** " [2]

بل إنه يؤكد فى مواضع عدة من الكتاب على أن الصراع بين الحضارتين : الإسلامية والغربية ، مستمر : هناك خصومة بين القيم العلمانية والقيم الإسلامية ، وهناك خصومة تاريخية بين الإسلام والمسيحية ، وهناك شعور بالغيرة من القوة الغربية ، وهناك استياء من السيطرة الغربية الناجمة عن بنية الشرق الأوسط السياسية بعد زوال الاستعمار، وعندهم – أى المسلمين – شعور بالمرارة والامتهان نتيجة المقارنة البغيضة بين إنجاز الحضارتين : الإسلامية والغربية فى القرنين الأخيرين " طالما أن الإسلام يظل (وسيظل) كما هو ، والغرب يظل (وهذا غير مؤكد) كما هو الغرب ، فإن الصراع الأساسى بين الحضارتين الكبيرتين وأساليب كل منهما فى الحياة سوف يستمر فى تحديد

---

(1) صدام الحضارات صـ ٢٣٨

(2) المصدر السابق صـ ٢٤٠

علاقتهما فى المستقبل ، كما حددها على مدى الأربعة عشر قرناً السابقة.....
إن حرباً مجتمعية باردة مع الإسلام سوف تساعد على تقوية الهوية الأوربية بشكل عام ، فى وقت حاسم بالنسبة للوحدة الأوربية . ومن هذ قد يكون هناك مجتمع فى الغرب مستعد ، ليس لدعم حرب مجتمعية باردة فقط مع الإسلام ، بل ولتبنى سياسات تشجع عليها . فى سنة ١٩٩٠م قام " برنارد لويس " ، وهو مفكر غربى بارز مهتم بالإسلام ، بتحليل " **جذور الغضب الإسلامى** " واستنتج قوله : " يجب أن يكون واضحاً الآن أننا نواجه حالة وحركة تتخطى بكثير مستوى القضايا والسياسات والحكومات التى تتابعها ، وهذا ليس أقل من صدام حضارات ، والذى ربما كان غير منطقى ، ولكنه بالتأكيد رد فعل تاريخى لتنافس قديم ضد تراثنا اليهودى المسيحى وحاضرنا العلمانى ، وانتشار كل منهما على مستوى العالم ، ومن المهم جداً أننا من جانبنا لا يجب أن نستثار إلى رد فعل تاريخى ولا منطقى معادل ضد ذلك المنافس ."[1]

كان من الطبيعى بعد ظهور هذه الفكرة ، صراع الحضارات على الساحة الثقافية العالمية أن يتصدى المفكرون من المسلمين لهذا الطرح غير السليم - منطقياً ، وفكرياً ، وتاريخياً - ، موضحين أن تعاليم الإسلام تدعو إلى الحوار لا إلى الصدام ، ويبدو ذلك واضحاً من آيات القرآن الكريم ومن أحداث التاريخ الإسلامى ، كما ذكرنا ذلك سابقاً ، فالإسلام يحث المسلم على الاعتراف بالآخر والحوار معه ، لكى يعيش الإنسان آمناً على دينه ، مطمئناً على حياته ، واثقاً من صدق المشاعر بينه وبين أخيه الإنسان ، وإن اختلف معه فى الدين والعقيدة ، وبهذا احتل الحديث عن هذا الحوار وضرورة التعاون على المستوى الإقليمى والدولى مساحة كبيرة فى دوائر الفكر الإسلامى ، بكل أنواعه : من

---

[1] المصدر السابق صـ ٣٤٣ - ٣٤٤

الكلمة المكتوبة إلى الصوت المسموع ، إلى الصورة المرئية ، منددا باتهام المسلمين بأنهم أعداء الحضارة الحديثة ، معلناً استعداد المسلمين للحوار على جميع المستويات ، وفى كل المجالات التى تتعلق بحياة الإنسان وسلامته ، وباستقرار المجتمعات وأمنها .

بدأ الحوار مع الآخر ، فعقدت العشرات من الندوات والمؤتمرات فى أماكن شتى فى أرجاء المعمورة ، دون أن يعرف أحد من المسلمين المتحاورين ماهية الموضوعات التى يقوم عليها الحوار ، ولاطبيعة الأهداف التى يريدون الوصول إليها . لقد عقدت حتى الآن أكثر من أربعين جولة من الحوار الإسلامى — المسيحى فى عواصم متعددة اتخذت شكل مؤتمرات ، وندوات ، وحلقات دراسية ، ولقاءات مشتركة ، وألقيت فيها بحوث حول السلام والتعايش السلمى ، والأخوة الإنسانية ، كما تبودلت كلمات تنضح بالعطف والمودة والرحمة الإنسانية ، وتحددت فى بعضها — وهو قليل جداً — بعض الموضوعات التى تتصل بالتعايش السلمى — وغالباً ماكان الجانب المسيحى هو الذى يختارها — ولكن لم يصل المشاركون فيها إلى نتائج ملموسة ، يمكن تنفيذها أو رؤيتها على أرض الواقع ، فهى — غالباً — لا تعدو أن تكون اجتماعات للكلام وتبادل التحيات الرسمية .

ولهذا ينبغى أن يحدد أسلوب الحوار ، ومنهجه ، وقضاياه ، والأهداف التى يريد المتحاورون الوصول إليها . أما **أسلوب الحوار** فينبغى أن يكون على النحو التالى :

١- لا يكون الحوار متكافئاً إلا إذا كان بين قوتين متعادلتين يعترف كلٌّ منهما بالآخر ، إذ يحدث التصارع عندما تجعل إحدى الثقافات من نفسها الثقافة العظمى ، بينما كل الثقافات الأخرى ثقافات صغرى ، ويظن أصحابها أن

ثقافتهم أعلى وأعظم من الثقافات الأخرى ، الثقافات الصغرى . نحن نعيش فى القرن الواحد والعشرين ، حيث تواجه البشرية نظاماً عالمياً جديداً ، فهل يوجد فى هذا النظام أرضية مشتركة ، يقوم عليها الحوار بين الحضارات والثقافات المختلفة ؟ وكيف تبدو هذه الأرضية المشتركة فى عالم يريد أن يعيد نظام الهيمنة القديم فى ثوب جديد ، تحت شعارات مختلفة ؟ إن الحوار لن يكون مثمراً فى هذا الجو إلا إذا تحقق شرط أساسى ، ألا وهو الاعتراف المتبادل بالتقاليد المميزة للحضارة الإنسانية ، قد يكون هذا أمراً صعباً على أولئك الذين يمارسون الهيمنة على العالم ، وليس عندهم الاستعداد للتنازل بأنهم الأقوى ، والأكثر تفوقاً فى مجال التكنولوجيا ، ولكنه شرط بالغ الأهمية، إذا كان الطرفان صادقى النية فى الوصول إلى صيغة مشتركة للتعايش السلمى . إن تحقيق السلام فى العالم يتوقف على تحقيق السلام بين الأديان، ولن يتحقق السلام بين الأديان إلا بإجراء حوار بين أصحاب هذه الأديان ، ومن شروط نجاح أى حوار على أى مستوى أن يكون كل من طرفى الحوار نداً للآخر ، وهذا يعنى ضرورة تحقيق المساواة التامة بينهما فى كل ما يتعلق بالحوار المراد إجراؤه بين الطرفين .

٢- عدم المساس بالعقائد فى جلسات الحوار ، وهذا لا ينفى ترك أو إهمال الدراسات العقدية فى المدرجات الجامعية ، وفى حلقات النقاش الأكاديمية ، فذلك مرفوض رفضاً باتاً ، لأن الأديان بالنسبة لأصحابها حقائق مطلقة ، لايجوز تعديلها ، أو التنازل عنها ، فالانتقاص من الإيمان ، ولو قيد شعرة أو أكثر ، يخل به ، ويفقده حقيقته ، وبالتالى لا يكون إيماناً . فهل عند الغربيين استعداد للتنازل عن بعض عقائدهم

المسيحية ؟ لا أظن ذلك ، بل العكس هو الصحيح ؛ إذهم ينتظرون من المسلمين أن يتنازلوا عن بعض مسلماتهم ، كما حدث فى إحدى ندوات الحوار التى عقدت بالقاهرة ؛ إذ اعترض المسيحيون المشاركون فى الندوة على تركيز المسلمين على موضوع القدس ، وهو من المقدسات الإسلامية ، كما أنكر بعضهم وصف الإسلام بالربانية ، وأصروا على موقفهم إزاء الإسلام ، من ناحية أن محمداً ليس نبياً ، ولا كتابه كتاباً إلهياً.[1] ولهذا يجب على المتحاورين أن ينحوا مسائل العقيدة جانباً ، ويركزوا فقط على المسائل الأخلاقية المشتركة لينطلقوا منها إلى منهاج للتعايش السلمى . وليس الهدف من الحوار الوصول إلى موقف وسط بين العقائد ، أى الوصول إلى توفيق تلفيقى ، يقوم على اتخاذ موقف نسبى عام ، بل أساس اللقاء التفاهم ، ومعرفة كلٍّ ما عند الآخر، وتصحيح للمعلومات غير الصحيحة عند كل طرف عن الطرف الآخر. ثم إن الحوار يكشف لصاحب الدين أو العقيدة — من خلال دين الآخر، أو عقيدته ، أو ممارسته لها – مفاهيم جديدة ، وأساليب للممارسة تضيق المسافة بين المبدأ والتطبيق ، تساعده على الاقتراب من مثله الأعلى ... ففى الحوار نكتشف التكامل : العطاء والأخذ ، الإثراء المتبادل . حينئذ يصير من الممكن الاعتراف بأن الآخر مصدر للإلهام وللقوة ، وينتفى التعالى الذى يستند إلى شعور بالكمال والاكتفاء الذاتى . بل يكتشف كل واحد أنه يحتاج إلى الآخر .... مع الاحتفاظ بهويته . فينظر الواحد إلى الآخر على أن كل واحد لديه شىء يتعلمه من الآخر ويستفيد به ، وأن لدى كل

---

[1] علماء الإسلام يردون على هجوم الجانب المسيحى بندوة الحوار صـ ١ على شبكة ليلة القدر .

واحد أيضاً شيء يقدمه ، فتنحل عقدة التفوق التي تعطل تبادل الفكر والتفاهم.[1]

٢- الاعتراف المتبادل ، فكما أن المسلم يعترف بوجود عقائد أخرى ويسميها ديناً ، وإن لم يؤمن بها لاعتقاده أنها باطلة ، فكذلك يجب على من يتحاور مع المسلمين الاعتراف بالإسلام ديناً ، فإذا تعذر ذلك ، فلا أقل من احترام تعاليم الإسلام وقيمه ، كما تحتم قواعد الحضارة الحديثة على الإنسان المتحضر أن يحترم تقاليد وعادات الآخر ، وإن كانت في رأيه لا تتفق مع المنطق والعقل . فإذا تعذر ذلك على بعض المتشددين ، فلا مانع من إجراء حوار لمنع المواجهة المسلحة بينهم وبين المسلمين ، ولإرساء قواعد ومبادئ للتعايش السلمي بين الناس جميعاً ، بشرط أن تكون لغة الحوار مؤدبة ، وأن يلتزم المتحاورون بالموضوعية ، بعيدا عن المهاترات والألفاظ التي تجرح شعور الأطراف المتحاورة.

٣- احترام كل طرف من أطراف الحوار ثقافة الآخر وعقيدته ، يقول الله تعالى : " **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...** " [الحجرات ١٣] فالاتصال الثقافي يجب أن يقوم على أساس تبادل المعلومات والخبرات ، لابقصد هيمنة ثقافة على أخرى ، أو فرض تقاليد شعب على آخر ؛ فلا يجوز لطرف أن يملي على الطرف الآخر ما يجب عليه عمله في مجال الثقافة ، أو في مناهج التعليم في مراحله المختلفة ، أو في توجيه الرأي العام ، عن طريق وسائل الإعلام المختلفة : المقروءة ، والمسموعة ، والمرئية . فإن ذلك كله من خصوصيات كل أمة ،

---

[1] وليم سليم : حوار الأديان صـ ١٧٣ - ١٧٤

فلا يخضع لتوجيهات خارجية، أو إملاءات أجنبية . فإن احتاجت إلى تطويرٍ لمواكبة العصر، أو تعديلٍ لتلافى عجز فيها ، فينبغى أن يكون ذلك نابعاً من شعور داخلى ، ليأخذ طريقه فى إطار الهوية ، بحيث لا يخرج عن التعاليم الدينية ، ولا يبعد عن القيم والمبادئ الأخلاقية ، ولا ينحرف عن العادات والتقاليد المرتبطة بالتاريخ والروح الإسلامية . ومن هنا يجب أن يرفض رفضاً باتاً كل إشارة أو تلميح إلى وجوب حذف آيات قرآنية بعينها من المناهج التعليمية ، أو إهمال أحداث تاريخية تدين مجموعة بشرية معينة ، لأن ذلك — لو حدث — يتناقى مع أهم شرط من شروط الحوار الإيجابى ، ألا وهو عدم تدخل أى طرف فى الشئون الخاصة التى تتعلق بهوية الطرف الآخر وثقافته وعقيدته .

٤- الاعتراف بالأصل الواحد للخليقة كلها ، كما قال تعالى : " **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ...**" [النساء : ١] ، فلا يتعالى جنس على آخر، ولا يُفَضَّل شعب بسبب اللون ، أو الجنس ، أو العقيدة ، أو بسبب قدراته العسكرية ، أو الاقتصادية ، أو العلمية والثقافية .

أما منهج الحوار فيجب أن يكون على النحو التالى :

١- نسيان الماضى بما فيه من صراعات وأحداث مؤلمة ، قدتفجر — لو لم تنس — النفور بين المتحاورين ، وتلقى بظلال قاتمة على جوّ الحوار ، فتحفز كل طرف ضد الآخر ، ملقياً بالشكوك فى كل ما يطرح من قضايا ومشكلات على مائدة الحوار .

٢- حرية العقيدة ، يقول تعالى : " لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .." [البقرة : ١٥٦] ، فلا يجوز لأحد أن يفرض عقيدته على الآخرين بالقوة ، بل يُتْرَك الأمر للناس ، يعتنقون ما يرونه صحيحاً ، دون ضغط أو إكراه .

٣- إتباع المنهج العقلى فى طرح القضايا والمشكلات ، وسبل حلها ؛ لأن العقل هو القاسم المشترك بين الناس جميعاً ، على اختلاف مللهم ونحلهم، فهو أقرب المناهج لالتقاء الناس ، مختلفى العقائد والملل ، وهو أقصر الطرق للوصول إلى رسم منهج مشترك للتعايش السلمى .

٤- عقد ندوتين سوياً ، يفصل بينهما أربعة أشهر ، تُخَصَّص للإعداد الجيد، وذلك باختيار موضوع واحد ، يُستَكْتَب فيه علماء ومفكرون على مستوى عالٍ جداً ، ثم تناقش أوراقهم فى الندوة ، بحيث تخرج المناقشة فى صورة ورقة واحدة ، تجمع ما فى الأوراق كلها من أفكار ومبادئ . ثم يُعْقَد مؤتمر تناقش فيه الورقتين اللتين أعدتهما الندوتان ، ولا يعقد هذا المؤتمر إلا بعد مرور أربعة أشهر على عقد الندوة الثانية ، يكون العمل فيها مُرَكَّزا على استخلاص ما فى الورقتين فى ورقة واحدة ، تُعْرَض على المؤتمر ، ثم يخرج منه بيان بالمبادئ التى اتفق عليها المؤتمرون . وإن لم يحدث ذلك كانت لقاءات الحوار الدينى بلا هوية تعرف بها ولا طابع يميزها ، ولا نتيجة من ورائها تجنى الشعوب ثمرتها .

٥- يُكَوَّن جهاز إدارى تكون مهمته العمل بكل الوسائل على تفعيل ما صدر عن المؤتمر من مبادئ وتوجيهات على كل المستويات الإقليمية والدولية ، ولو اقتضى الأمر رفعها إلى المنظمات الدولية لإصدار قرارات مُلْزِمَة بتنفيذ هذه المبادئ ، فيجب القيام بذلك ، وإلا أصبحت جلسات الحوار الدينى عبارة عن اجتماعات شكلية ، وتوصيات ونتائج لا تتعدى كونها كلمات

سُطِّرَت على ورق ، و بالتالى تصبح لقاءات فاشلة ، لا فائدة فيها ، اللهم إلا تعطيل مصالح المسلمين ، وتضييع الوقت فى مباريات كلامية ، وخطب جوفاء لا مدلول لها .

obeikandl.com

موضوعات الحوار

لاشك أن موضوعات الحوار الديني ، التي يجب وضعها على مائدة البحث كثيرة كثرة تجعل من المستحيل حصرها ، لأنها تتعلق بحياة الأفراد ، وحياة الشعوب . وعلى الرغم من كثرة عناصرها الماثلة أمامنا ، فهي أيضاً متجددة ، ومتطورة ، وخاصة في العصر الحديث ، عصر التكنولوجيا ، وعصر ما بعد الحداثة ، الذي يُخْرِج لنا كل يوم من الأطروحات وما يتبعها من مشاكل ما يدفع أجهزة الرصد إلى العمل بأقصى سرعة لملاحقتها وتقييمها . ولكن هذا لا يمنع من تناول أهم ما فيها ، وأكثر إلحاحاً لضبطه وتصويبه ، لتستقيم العلاقة بين الشعوب على أساس سليم ، يسعد الأفراد ، ويساعد على ازدهار الأمم وتقدم المجتمعات .

ومن اللافت لنظر أن بعض القضايا قديم قدم قيام المجتمعات الإنسانية ، على الرغم من تطوير مفهومها ، وتنوع مضامينها بتطور الحياة الإنسانية ، وأخري أفرزها التقدم الحضاري والاكتشافات العلمية . ويجب على المتحاورين أن يقدموا – في قائمة موضوعاتهم – الأهم على المهم ، حتى يسهموا في الإسراع بمحاولة حل المشاكل التي تتعلق بحياة الناس ، أفراداً وجماعات .

ومن أهم الموضوعات التي يجب بحثها :

قضايا الإنسان :

فقد كرمه الله – كما أخبرت بذلك كل الكتب المقدسة – ، وركزت على تكريمه معظم – إن لم يكن كل – الاتجاهات الفكرية في كل العصور والأزمان ،

لذا يجب أن توجه الدعوة إلى بحث ما يجب عمله لحفظ حياته ، أياً كان لونه ، أوعقيدته ، أوجنسه ، فلا ينبغى أن يستعلى إنسان على أخيه ، أو يظلمه باغتصاب حق من حقوقه المشروعة : حفظ النفس ، والدين، والعقل ، والنسل ، والمال . كذلك لاينبغى أن يهان ، أو يذل من ثقافة أخرى على أى مستوى : ثقافى أو إقتصادى ، أو سياسى ، أو اجتماعى ، وعليه فيجب أن يكون موضوع **حقوق الإنسان** أول ما يوضع على مائدة الحوار الدينى ، من حيث **حرية العقيدة** ، يقول الله تعالى : " **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** .. " [البقرة : ١٥٦]، فلا يجوز لأحدأن يفرض عقيدته على الآخر بالقوة ، بل يُتْرَك الأمر للناس، يعتنقون ما يرونه صحيحاً ، دون ضغط من أى نوع . **والعدل** ، يقول تعالى : ".... **وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**...." [المائدة : ٨] ، ومن مقتضيات العدل حق كل شعب فى أن يعيش فى وطنه دون اعتداء عليه من أى نوع ، أو محاولة للسيطرة علي مقاليد أموره . **وحرية التعبير** لأن التقييد فى هذا المجال يزيد الأمور غموضاً ، فلا يعرف مايكنه البعض للآخر ، وبذلك تنمو الدسائس و الفتن . **والمساواة** ، فلا فضل لأحد على آخر ، وذلك يقتضى الاعتراف بحق كل شعب فى الموارد الطبيعية ، بحيث تُقَسَّم بالتساوى على كل شعوب الكرة الأرضية ، فلا استغلال ، ولا احتكار ، وإنما تعاون بين الناس على تنمية الموارد ، وتوزيعها على الشعوب ، بحيث ينال كلٌّ ما يضمن له حياة كريمة ، تليق بالإنسان الذى كرمه الله .

هذه هى القواعد الأساسية فى مجال حقوق الإنسان ، ويجب على أطراف الحوار الاعتراف بها ، وإعلان هذا الاعتراف على الملأ ، ثم يبدأ الحوار بين الأطراف للوصول إلى صياغتها فى مبادئ عامة ، يلتزم الجميع بتطبيقها بكل

الوسائل ، حتى وإن اقتضى الأمر إنشاء تحالف دولى لفرضها بالقوة على من يرفضها .

حقوق المرأة :

من الطبيعى أن تتمتع المرأة بكل ما يتمتع به الرجل ، من الناحية الإنسانية ، فكل مايتوصل إليه الحوار الدينى فى بحث موضوع " حقوق الإنسان " يسرى على المرأة ، ثم تنفرد ببحث آخر ، ليرفع عنها ما يلحقها من ظلم باعتبارها أنثى ، وذلك من حيث حقوقها كزوجة ، ابتداءً من حقها فى اختيار شريك حياتها ، إلى ممارستها فى إدارة شئون الأسرة ، وتربية أولادها ، وحقها كمواطنة ، لها ما للرجل من : تعليم ، وعمل ، ومشاركة فى شئون الأمة : الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية .... وغير ذلك من الأمور التى يمارسها الرجل ، ما دام ذلك فى استطاعتها .

البيئة :

قد يبدو للبعض أن هذا الموضوع بعيد كل البعد عن موضوعات الحوار الدينى ، لأن مفرداته من نظافة وتشجير وأمثالهما لا تدخل فى نطاق الموضوعات المثيرة للجدل ، والتى تحتاج إلى اتفاق بين ممثلى السلطة الروحية ، ولكن هذا الفهم غير صحيح ، فلم تعد المشاكل البيئية قاصرة على هذا التصور، بل امتد نطاقها ، فأصبحت مسألة دولية تحتاج إلى تضافر كل القوى ، بما فيها المؤسسات الدينية ، ذلك أن البيئة مهددة بالمنتوجات البيولوجية، من أسلحة ومتفجرات ، وعلى رأسها الأسلحة النووية ، التى أصبحت أكبر هاجس للإنسان ، تقض

مضاجعه ، وتهدد وجوده ، فهو فى قلق دائم ، وخوف مستمر من آثار هذه المخترعات ، لا من حيث توقعه لاندلاع حرب نووية فقط ، بل من تسرب هذه الإشعاعات النووية ، كما حدث فى تشرنوبيل قبل عدة سنوات ، ومن انتشار إشعاعاتها بأى طريق آخر ، حيث تدمر الكائنات الحية المحيطة به ، بما فيها من الطعام والشراب الذى ينقل إليه الأمراض والعلل التى لا تبقى ولا تذر . ولهذا ينبغى بحث هذا النموذج فى لقاءات الحوار الدينى ، واتخاذ قرارات وفتاوى دينية لتحريم هذه الصناعة ، ومناشدة كل الدول ، بلا استثناء ، حتى الدول العظمى بالتخلص من هذه الصناعة كلية ، وتدمير كل مالديها من قنابل ومتفجرات نووية ، ومناقشة السبل التى يمكن أن تتخذها كل المؤسسات الدينية لتخليص العالم من هذا الكابوس الذى يجثم على صدور الناس ، حتى يشعر الإنسان بالأمن والسلام ، فتهدأ نفسه ليتفرغ للإبداع فى المجالات التى تساعده على التطور الحضارى ، وتعيش كافة الشعوب فى أمن واطمئنان.

توزيع الثروات :

لاشك أن الله سبحانه وتعالى خلق الأرض، وأودع فيها ثروات متعددة ، ليستخدمها الإنسان فى حياته ، وعليه فلا يجوز لشعب أن يحتكر هذه الثروات ويحرم منها الآخرين ، كما هو واقع اليوم فى عالمنا المعاصر، إذ يستأثر ٢٠% من سكان الأرض بـ ٨٠% من هذه الثروات . وهذا ظلم يجب رفعه عن المحرومين من التمتع بثروات الكرة الأرضية . وعليه فيجب على المؤسسات الدينية بحث هذا الموضوع فى لقاءات الحوار الدينى ، للوصول إلى قواعد تعطى كل ذى حق حقه ، فلا ظلم ، ولا احتكار ، ولا استغلال ، بل تعاون ، وتضافر للجهود ،

حتى يكون هناك توازن بين الشعوب فى الانتفاع بهذه الثروات ، كُـلٌّ حسـب طاقته ، ولا يُحْرَم منها من لم تؤهله طاقته وعمله بل يأخذ ما يكفيه فى حياتـه ، حتى ولو اقتضى الأمر إنشاء صندوق لمساعدة الشعوب الضـعيفة – وكـذلك الأفراد – ليعيشوا عيشة إنسانية كريمة .

هذه نماذج فقط من القضايا التى يجب أن تطرح على مائدة الحوار الدينى؛ إذ مما لاشك فيه أن هناك العديد من القضايا والمشكلات التى يجب بحثها ، فعلى المكلفين بالتحضير لهذه الندوات والمؤتمرات حصر قضايا العصر التى تحتـاج إلى بحث ، ووضعها فى قائمة حسب أهميتها بالنسبة لحيـاة الأفـراد ، وضـرورتها لاستقرار المجتمعات الإنسانية وأمنها .

أهداف الحوار الدينى :

للحوار الدينى أهداف متعددة ومتنوعة على جميـع الأصـعدة : فرديـة وجماعية ، إقليمية ودولية ، ثقافية وفكرية ، ومن أهم هذه الأهـداف : معرفـة الآخر ، إذ يعرض كلٌّ ما عنده أمام الآخر ، سواء كان ذلك يتعلق بحياة الإنسان فرداً أوجماعة ، أو باستقرار حياة الشعوب وأمنها . يعرف المرء رأى الآخـر فى العدل والمساواة والتكافل ، ومدى استعداده للمشاركة فى وقف العدوان علـى الشعوب ، والإسهام فى العمل العام لحماية الإنسان من الضياع والهـلاك تحـت عجلة القوى الاقتصادية عابرة القارات ، وفى مواجهة الأسلحة الفتاكـة الـتى تُسْقِط كل يوم – بل كل ساعة – العشرات – بل المئات – من القتلى والجرحى ممن لاذنب لهم ولا جريمة ارتكبوها ، اللهم إلا الرغبة فى فرض الهيمنة والسيطرة

من المتشددين والمتطرفين من الجماعات غير الشرعية ، أو من جانب عصابات إقليمية ، أو من جانب قوى دولية عظمى .

إن مجرد الجلوس على مائدة الحوار الدينى بنية صادقة من الطرفين فى التعايش السلمى ، يترع فتيل الاختلاف من المتخاصمين ، ويمهد الطريق لبدء حقبة جديدة يتعاهد فيها الطرفان على العمل سوياً لرفع الظلم عن المظلومين ، ومساعدة الضعفاء على حماية أنفسهم وأموالهم وأوطانهم ، والوقوف جبهة واحدة أمام كل من يعتدى – أو يفكر فى الاعتداء – على غيره ، أو يستبيح حرمات الآخر ، سواء على مستوى الأفراد أو الشعوب

إن صدام الحضارات فكرة شيطانية ، يراد بها نشر العداوة والبغضاء بين الشعوب ، مما يعطى قوى العدوان ذريعة للسيطرة على ثروات الشعوب ومقدراتها ، ولذا يجب أن يركز الحوار الدينى على التعايش السلمى بين الأمم ، وإن اختلفت عقائدها ، وتنوعت ثقافاتها ، وتعددت اتجاهاتها الفكرية ؛ إذ لم يكن – ولن يكون – صدام بين الحضارات ، بل تنافس شريف ، يتمثل فى تبادل الأفكار والرؤى على جميع المستويات ، فما كان صالحاً للأفراد والمجتمعات ، بقى واستمر ، وثبتت أقدامه ، وما كان طالحاً ذهب واندثر ، يقول الله تعالى : " .... فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ... "

[الرعد : ١٧]

حوار الحضارات

اهتم المفكرون منذ الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م بقضية العلاقة بين الشرق والغرب ، وبتعبير أدق بين الإسلام والآخر مشددين على أن الأسلوب الأمثل للتفاهم بين الطرفين – المسلمين وغير المسلمين ، وخاصة الأوربيين ومن لحق بهم من سكان أمريكا الشمالية – فى ظل تدهور الأحوال الإقليمية فى بلاد المسلمين ، وذلك بغزو العراق وأفغانستان هو : **الحوار** ، وأكد هذا التوجه حدة التوتر فى فلسطين ، وتلويح القوى العظمى لبعض البلدان الإسلامية فى منطقة الشرق الأوسط بالعقاب الدولى ، الذى قد يصل إلى حد استعمال القوة العسكرية ضدها .

تبلور هذا الاتجاه وتدثر بمصطلح فكرى هو : " **حوار الحضارات** " ، وذلك ردًّا على نظرية صمويل هنتنجتون : **صدام الحضارات** ، التى روج لها فى التسعينات من القرن العشرين بنشر كتاب بهذا العنوان ، حيث بين فيه أنه بانتهاء الحرب الباردة بين الغرب الرأسمالى والشرق الشيوعى سوف يتشكل العالم نتيجة للتفاعل بين سبع أو ثمانى حضارات كبيرة ، منها الحضارة الإسلامية . وقد اعتبر هذه النظرية تهديداً للسلام ، معتمداً – على أساس فهم خاطئ – على دراسته للعلاقات الثقافية والحضارية بين الأمم على مدى التاريخ ، ومفصحاً عما يكمن فى اللاوعى عند الغربيين من ضرورة وجود القطبية الثنائية فى العالم ، يناطح كلاهما الآخر . فلما سقط العدو الشيوعى ، سوف يحل مكانه – هكذا تصور هنتنجتون – عدو آخر للغرب ، وهو : **الإسلام** .

كتب الباحثون – وما زالوا يكتبون – كثيراً من المقالات والكتب حول هذا الموضوع ، وكثرت المؤتمرات ، وتعددت اللقاءات فى شكل ندوات ، سواء على المستوى الوطني ، أو الإقليمى ، أو العالمى ، وأحياناً وفود تجوب هنا وهناك ، تدير حواراً بين الأطراف المختلفة فى إطار ما يعرف بـ : **حوار الحضارات** ، مركزين على أن السلام العالمى لا يمكن أن يبنى إلا فى ظل **التسامح ، والتفاهم** ، كما أن مصير البشرية لا يتقرر إلا بالجميع ، ومعهم ، ولصالحهم جميعاً .

غير أن الاتجاهات الفكرية كانت – وما زالت – متعددة ، بل ومتضادة أحياناً ؛ فبينما يرى فريق أنه لا جدوى من الحوار فى ظل الوضع الدولى الحالى ، حيث تسود حالة صراع حضارى بين العالم الإسلامى والعالم الغربى ، ويشككون فى قدرة المتحاورين على الإسهام فى إدارة المعضلات السائدة بين الشرق والغرب ، مؤكدين على أنه لا يمكن أن يكون الحوار بين الحضارات مجدياً فى ظل غياب التكافؤ بين الأطراف المتحاورة ، فانعدام التوازن بين القوى يؤدى إلى وضع يملى فيه أحد الأطراف ما يحقق أطماعه ، ويحمى مصالحه ، وعلى الطرف الآخر الإذعان . والدليل على صحة هذا أننا نرى أن الغرب هو الذى يضع أجندة الحوار ، ويحدد قضاياه ، وهى غالباً ما تدور حول الحريات ، والحقوق الفردية ، وضرورة احترام التعددية . ويركز بصفة خاصة على ما يراه – أى الغرب – تفسيرات جامدة للشريعة الإسلامية ، وهى مسألة تهم الغرب ، ويضعها فى مركز الحوار ، مستهدفاً صياغة الشرق بالصورة التى يريدها تحت حجة معالجة – وتجفيف – جذور الإرهاب الذى يهدد – حسب زعمهم – الحضارة الغربية . فحوار الحضارات بالشكل الموجود الآن على الساحة الدولية ،

ما هو إلا واجهة للغرب يخفى وراءها صراع الحضارات ، وبالتالى فلن يثمر إلا بمقدار ما تريده الإدارات الرسمية فى صراعها مع القوى المخالفة لها .

أما الفريق الذى يرى أن الحوار مع الآخر ضرورة ، فيستند فى رأيه إلى أن العولمة حقيقة قائمة ، والواقع يحتم الاتصال بالآخر بكل الطرق الممكنة ، وعلى رأسها الحوار الفكرى تفادياً للصدام ، الذى يسعى إلى تأجيجه أناس سيطرت العنصرية على عقولهم ، فطفقوا يروجون لصدام الحضارات ، وتناطح الثقافات بغية تحقيق مصالح لهم ، وأملاً فى الوصول إلى التحكم والسيطرة على مقدرات الشعوب . ومن هنا يجب على الجميع أن يقبلوا بالحوار ، ويدعوا له ، حتى لا يضيع الوقت والجهد فى إحباطات وصراعات لن تجدى ، ولن توصلنا إلا إلى مزيد من الإحباطات . وعديد من الهزائم على جميع المستويات ؟ سياسية ، وعسكرية ، وثقافية ، واقتصادية .

ولكى يسير الحوار فى طريق سليم ، يؤدى إلى التفاهم بدلا من التراشق ، ويفضى إلى التسامح بدلا من التعصب ، فعلى الغربيين أن يغيروا من توجهاتهم فى السياسة الخارجية ، وأن يتخلوا عن أسلوب الازدواجية فى الحكم على الأشياء ، وفى التعامل مع القضايا الدولية ، وأن يسعوا إلى الإنصات لما يقوله المسلمون عن الإسلام ، حتى يفهموا الإسلام ، بعيداً عن الصورة السلبية التى كونوها عنه من تصرفات بعض المغالين ، وهم قلة لا تمثل الإسلام ..... ويوجد مثلها فى كل الأديان ، وبين كل أمم الأرض ، فلا يجوز أن تُعَدّ هذه الصورة - التى رسمتها قلة أخفقت فى التعبير عن مبادئ الإسلام - تعبيراً عن المبادئ التى وردت فى القرآن الكريم ، يلتزم بها المسلمون أفراداً وجماعات .

أما المسلمون ، فعليهم أن يتخطوا عن الدور السلبى الذى يمارسونه على صعيد المجتمع الدولى ، وأن يرتبوا مجتمعاتهم من الداخل ، كى تعبر عن الصورة

الإسلامية الصحيحة ، وأن يُعْنَوا بإعلامهم ، كى يرقى إلى درجة تعبر عن قيم الإسلام وتعاليمه تعبيراً صحيحاً .

لم تكن ظاهرة الحوار غائبة فى المجتمعات الإسلامية منذ أمر الله رسوله ﷺ بالجهر بالدعوة ؛ فقد حاور ﷺ المشركين فى قضايا كثيرة ، سجلها القرآن الكريم ، كما عقد لقاءات مع مختلف المجتمع العربى فى الجزيرة العربية فيما يعرف بعام الوفود ، وكان من الوفود التى وفدت عليه فى هذا العام وفد نصارى نجران ، فقد رُوِىَ أنهم دخلوا عليه فى مسجده ، وبدءوا الصلاة فيه ، فأراد بعض الصحابة منعهم ، ولكن النبى ﷺ بسماحته قال للمانعين : **دعوهم** ، فصلوا فى مسجده مطمئنين . ولما فرغوا من صلاتهم عُقِدَت بينه وبينهم جلسة حوار ، وجهوا فيها للنبى ﷺ كثيراً من الأسئلة ، فأجابهم النبى ﷺ عليها . وقد سجل القرآن الكريم بعضاً من هذه الأسئلة مع إجابة الرسول ﷺ عنها ، فمن بين أسئلتهم قولهم له : ما تقول فى عيسى ، فإنا نصارى ، يسرنا إن كنت نبيًّا أن نعلم ما تقول فيه ، فتلا رسول الله ﷺ قوله تعالى : " **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ** " [آل عمران : ٥٩-٦١] ، وبعد انتهاء الحوار أعطاهم عهداً كان من مبادئه : " ..ولنجران جوار الله تعالى وذمة محمد النبى ﷺ وملتهم وأرضهم وأموالهم و غائبهم وشاهدهم ، وعشيرتهم وتبعهم ، وألا يغيروا مما كانوا عليه ، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم ، ولا يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، وكل ما تحت أيديهم من مال ، وليس عليهم

ريبة ، ولا دم جاهليته ، ولا يحشرون ، ولا يعشرون ، ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقاً ، فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل ربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة ، ولا يُؤْخَذ رجل منهم بظلم آخر ، وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله ، حتى يأتى الله بأمره ، ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بحرب ." [1]

فهذه أول معاهدة فى التاريخ المعروف ، تعترف بدين الآخر وثقافته ، وتحترم تقاليده وعاداته ، فهى اعتراف صريح بتنوع الحضارات ، وتعدد الثقافات ، وهى نموذج للتعايش السلمى بين شعوب مختلفة فى عقائدها ، ومتنوعة ثقافاتها ، ومتعددة أساليب حياتها . نموذج حضارى برز فى عصور الظلمات ، ونبت من بين الحروب الدينية التى كانت سائدة آنذاك ، وتبلور فى مخضم الصراعات العرقية والثقافية ؛ فهى أكبر دليل على تقبل الإسلام للثقافات الأخرى ، والتعايش معها ، وخير مثال لدعوة الإسلام إلى إقرار السلم بين الأمم والشعوب ، مهما اختلفت أديانها ، وتعددت ثقافاتها ، وتباينت أساليب حياتها ، وتنوعت نظرتها وتصورها للكون والحياة .

يفتح الإسلام ذراعيه لكل الثقافات الأخرى ، مما يدل على سعة أفقه ، ونظرته العالمية الواسعة إلى الأديان والأجناس ، فأقام حضارة كبرى ساهم فيها أهل هذه الأجناس والأديان فى كل ناحية من نواحى الحياة : فى الفكر ، والفلسفة ، والأدب ، والفن ، والطب ، واللغة ، والتصوف . وكانت تلك الحضارة تأليفاً وتوحيداً ، لكل الحضارات قبلها : فى الصين ، والهند ، وفارس ، والروم ، واليونان .

---

[1] أبو زهرة : خاتم النبيين ﷺ جـ ٢ صـ ١٣٦٨ - ١٣٦٩

شيد المسلمون على كل هذه الأسس بناءً حضاريًا ضخماً ، اشترك فيه العلماء من جميع الأجناس والأديان ، فكانت بحق حضارة لجميع أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ، ثم انتقل هذا التراث الحضارى إلى الأجيال اللاحقة ، فكان مصدراً للحضارة الحديثة . وقد عبر أحد العلماء عن دور المسلمين فى بناء الحضارة الإنسانية بقوله : " إن المسلمين لم يحرصوا فقط على أن يكونوا ورثة الأنبياء ، بل ورثة الفلاسفة كذلك ."

فالإسلام دين حضارى ؛ لأنه لم يغرس فى نفوس المسلمين حقداً ضد أى طائفة أخرى من البشر تعتنق ديناً آخر ، و لم يُحَرِّم عليهم التزود بأى نوع من أنواع الثقافات الإنسانية ، و لم يفرض عليهم شيئاً يعزلهم عن غيرهم من أجناس البشرية ، و لم يأمرهم بإجبار أحد على اعتناق الإسلام ، فكان بذلك ساحة ضمت جميع الناس ، وبوتقة صهرت جميع الثقافات ، ووادياً أمِنَ فيه الناس على أنفسهم ، وعقائدهم ، وأفكارهم ، واطمأنوا فى ظله على سلامة أموالهم وممتلكاتهم ، فنظروا إليه غير خائفين ، وفكروا فى مبادئه غير وجلين ، ودرسوا أحكامه فى جوٍّ من الحرية والديمقراطية ، فجاء اعتناق من اتخذه ديناً عن رغبة واقتناع ، وعاش فى ظل دولته من بقى على دينه آمناً مطمئناً ، يسعى إلى رزقه ، ويشارك فى مجالات الدولة المختلفة تحت راية الإسلام التى ترفرف معلنة أنها مظلة الإنسان من حيث هو إنسان ، لا فرق وبينه وبين الآخر بسبب الدين ، أو اللون أو العرق ، فالكل أمام قوانين العدل ، ومبادئ الرحمة سواء .

إذا حدد العلماء معنى كلمة الحضارة بأنها : مجموع ما خلفته الأمة من آثار فكرية وفنية فى جميع المجالات المادية والمعنوية ، فإن الأمة الإسلامة قد تفوقت على كل الأمم السابقة واللاحقة فى هذه المجالات ؛ إذ أبدع المسلمون فى جميع نواحى الحياة ، أسهموا بقسط وافر فى بناء حضارة إنسانية داخل إطار

أخلاقى غير مسبوق . ففى مجال التعليم الذى هو اللبنة الأولى والأساسية فى بناء أى حضارة ، أنشأ المسلمون المدارس ، والأكاديميات العلمية فى وقت نشر الجهل أجنحته فى جميع أرجاء الأرض ، فانتشرت المدارس الإسلامية منذ القرن العاشر الميلادى فى جميع مناطق الأقطار الإسلامية ، من الأندلس عبر إفريقيا حتى بلاد فارس ، وكانت المدارس العليا فى الأندلس منبعاً أمد الحياة الثقافية الأوربية بروافد حملت معها الخصوبة الفكرية التى هى أصل الحضارة الغربية .

وفى مجال الهندسة توصل العلماء المسلمون إلى رسم كتابة الأعداد ، فكانت أساساً للرسم الأوربى الحالى للأرقام الحسابية ، وظل الجدول الفلكى الذى وضعوه هو المرجع الوحيد لعلماء أوربا لعدة قرون .

وفى مجال الطب ، وصل المسلمون بفن العلاج إلى مستوى الكمال ، فأنشئوا أول مستشفى فى بغداد فى عهد الخليفة هارون الرشيد ، ثم ما لبث أن افتتحت مستشفيات مماثلة لها فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية ، وكان أشهرها "بيمارستان" دمشق ، حيث توجه إليه الأطباء للحصول على الدرجات العلمية التخصصية ، كما أمه الطلاب للتدريب على ما يحتاجون إليه فى امتحاناتهم .

وكانت رعاية المرضى سبباً فى اكتشافات جديدة فى مجال الأدوية ، ذلك المجال الذى أصبح فى ذلك الوقت علم للمسلمين الذى لا ينازعهم فيه أحد ؛ إذ اكتشفوا العديد من المستحضرات الطبية ، واستعملوا كثيراً من الأعشاب فى علاج المرضى ، فأثروا هذا المجال باختراعاتهم العديدة ، كما ظهر العديد من المراجع الطبية فى هذه الحقبة الزاهرة فى تاريخ الطب الإسلامى ، **ثم انتقل هذا إلى أوربا فكان أسس علم الطب فى مدارسها العليا لعدة قرون .**

يعترف كثير من علماء أوربا بذلك ؛ فقد قال "جوتشالك " فى كتابه " الإسلام قوة عالمية متحركة " : " أسهم الشرق الإسلامى منذ القرن الثامن

الميلادى فى الحضارة العالمية بانجازاته الضخمة فى مجالات المعرفة ، و لم يتوقف تأثيره عند قرن معين ، بل ظل يتقلب فى صور مختلفة عبر القرون حتى عصرنا الحالى ، إذ امتد التأثير الفكرى لهذه الحضارة — حتى بعد التدهور السياسى للدولة الإسلامية — فى جميع أنحاء العالم ، فأنتج فى مجالات عديدة لم تبحث جوانبها حتى الآن ..."

ثم يقول : " **لو لم يقم العرب بهذا المجهود الضخم فى مجال المعرفة ، لفقدنا كثيراً مما نتمتع به الآن فى عالم الثقافة من العلوم والمعارف ، أو لتأخر على الأقل انتفاعنا دهوراً طويلة ، فقد وصلت الحضارة الإسلامية إلى أوربا عن طريق أسبانيا ، فدفعتها إلى تطور ذاتى فيما بعد .**"

حتى فى مجال الفن كان للمسلمين بصمة واضحة ؛ فقد استلهم الفن الإسلامى أفكاره من الفنون السابقة له ، ولكن ما أخذه من هذه الفنون المختلفة أعاده فى شكل ، اتخذ طابعاً مختلفاً كل الاختلاف عن أى فن سبقه ، فقد عبر عن اتجاه إسلامى خالص ، وحمل بصمات الروح الإسلامية التى تخضع لإرادة الله ، الذى حدد فى اللوح المحفوظ مصير العالم ككل ، وقدر لكل كائن حى قدره على حدة ، فما يباشره من أعمال هى فى واقع الأمر منسوبة إلى الله .

وفى داخل هذا الإطار ، أنتج المسلمون فناً رائعاً ، يستطيع كل إنسان إدراكه فى المساجد ، حيث زينها الفنانون برسومات رائعة ، وزخرفوها بأشكال فى غاية الروعة والإتقان ، بهرت — وما زالت تبهر — كل من شاهدها حتى عصرنا الحالى . وإن دل ذلك على شيء ، فإنما يدل على ذوق وإحساس بالجمال ، يضاهى — إن لم يفق — ما ينسب إلى العالم المتحضر اليوم ، باعتباره من السمات الأساسية للتقدم فى المجتمع ، وازدهار حياة الفرد فيه .

أما فى مجال الصناعة ، فقد برع المسلمون فى العديد منها ؛ إذ بلغت صناعة النسيج الفاخرة عصرها الذهبى فى عهد الدولة الصفوية ، عندما طليت قصور أوربا بذلك النوع المرصع بالذهب والفضة من أصبهان ، وظلت تستورده منها ابتداءً من عام ١٥٠٢م على امتداد مائتين وخمسين عاماً .

كما احتلت صناعة السجاد على امتداد التاريخ الإسلامى مرتبة عالية ، وظل الشرق حتى اليوم أكبر مورد سجاد للعالم ، وكان السجاد التركى أوسعها انتشاراً فى العهد العثمانى ، ولا زال مطلوباً فى كل أنحاء العالم حتى اليوم بجانب الفارسى والقوقازى .

كذلك أنجزت البلاد الإسلامية فى مجال صناعة المعادن إنجازات رائعة ، كما كانت بلاد فارس وطن صناعة الكرستال والزجاج ، ثم انتشرت فى جميع البلاد الإسلامية ، كما ازدهر فن العاج فى الأندلس وصقلية ، ثم انتشر من هناك فعم جميع البلاد الإسلامية . ولا تنس صناعة الأخشاب ، ويكفى دليلا على هذا رؤية ما فى المساجد من أشكال هندسية رائعة للمنابر ، ومشاهدة ما فى القصور والمتاحف من شرفات وأبواب وشبابيك ، تكاد تنطق من فرط روعة أشكالها الهندسية ، ولا تسل عن الفن المعمارى الإسلامى ، فالمساجد والقصور تنبئك عن الكثير منها .

كان المسلمون متفوقين أيضاً فى مجال التجارة ، يشهد بذلك أحد الأوربيين فى معرض حديثه عن ازدهار التجارة فى العالم الإسلامى فى عصر لم يكن لها أثر يذكر فى أوربا ، فقد قال بالحرف الواحد : " بينما كانت الطبقات الحاكمة فى أوربا تنظر إلى التجارة نظرة ازدراء واحتقار ، سيطر العالم الإسلامى على شئون التجارة ، فأصبح التبادل التجارى محتكراً فى أيدى المملكة

الإسلامية ؛ إذ لم يكن بين أقطارها الشاسعة حواجز جمركية ، ولا حدود مانعة أمام تبادل البضائع اللازمة لضرورة الحياة ، فازدهر الاقتصاد فى ظل قواعد التجارة وشئون المواصلات التى بلغت حد المثالية ، لدرجة أن النشاط التجارى سار فى البر والبحر بأقصى سرعة دون هدوء أو توقف ، واستطاعت العقلية التجارية عند التجار المسلمين فى ذلك الوقت الحصول على أرباح طائلة .[1]

ومن هذا العرض يتبين أن المسلمين أنجزوا الكثير فى مجالات الحضارة الإنسانية بكل أنواعها وأشكالها ، ولذا ينبغى أن يكون معلوماً لدى الطرفين المتحاورين نديتهما ومساواتهما ، فإذا كان الطرف الغربى يعتقد أنه متفوق على الطرف الآخر بما وصل إليه من تقدم فى العصر الحديث ، فإن للطرف الإسلامى تاريخاً مجيداً فى هذا المجال ، ويتفوق على الغرب بأن حضارته لم تكن مادية بحتة – كما هو الحال فى الحضارة الغربية المعاصرة – ، بل كانت إنسانية ؛ تعنى بالإنسان ، وتحافظ على حقوقه ، وتغرس فيه الأخلاق التى تحميه من عبودية المادية ، وسيطرتها على سلوكياته ، وتحرره من طغيان الأنانية ، وشطحات التعصب للدين ، أو للعرق ، أو اللون ، فكل الناس سواسية ، فلا تعصب ، ولا تطاول من أحد على الآخر ، فالإنسانية مصانة ، ومقدسات كل الشعوب – على اختلاف أديانها – تحتل المكانة الأولى فى ظل الحضارة الإسلامية .

احترم الإسلام عقائد الآخرين ، على الرغم من الاختلاف الجذرى بينها وبين الإسلام ، بل إنه سماها أدياناً ، مما يوحى بالاشتراك بينها وبين الإسلام فى الخصائص المميزة لها عن التيارات الفلسفية ، فقال تعالى : " قُلْ يَا أَيُّهَا

---

[1] Vlg. Gottshalk : Weltbewegende Macht Islam 160 ff.

الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ " [الكافرون : ١ -٦] ، وهو ما يسمح لمعتنقيها بالجلوس على مائدة الحوار جنباً إلى جنب مع المسلمين يحاورونهم حواراً حضاريًا ، بعيداً عن السفه والتطاول ، ومترهاً عن الإسفاف فى لغة الحوار ، متجنبين احتقار الآخر أو الإساءة إلى مقدساته ، امتثالا لأمر الله فى قوله تعالى : " وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ" [الانعام : ١٠٨] ، فالنهى عن سباب مقدسات الآخر هو دعوة إلى حوار حضارى بالكلمة الطيبة ، والمجادلة بالتى هى أحسن ، وتبادل المعلومات فى جو يسوده الاحترام من الطرفين ، ومراعاة شعور الآخر ، بحيث لا يتطاول على مقدساته ، ولا يستهين بمبادئه ، ولا يستهزئ برموزه ، ولا يسخر من تعاليمه .

فالإساءة إلى الرسول ﷺ فى بعض الجرائد الغربية أسلوب غير حضارى ، بل هو رجوع بلغة الخطاب إلى ما كان سائداً فى عصور الظلام ، وممارسة لأخلاقيات تتنافى مع أبسط مبادئ الحضارة الإنسانية . ومن المبررات اللامعقولة ادعاؤهم بأن هذا يدخل فى باب حرية التعبير ، فقد ادعت الصحيفة الدنمركية التى نشرت صوراً مسيئة للرسول ﷺ أن ما قامت به حق مشروع ، يندرج تحت باب حرية التعبير السائدة فى العالم الغربى ؛ إذ أن قوانين هذا العالم تحمى هذه الحرية ، وعليه فليس من حق المسلمين الاعتراض على ذلك ، لأنه من المسلمات فى المجتمع الغربى .. بل وصل الأمر إلى حد رفض رئيس الوزراء الدنمركى مناشدة المسلمين له تقديم اعتذار عن هذه الإساءة زاعماً أن حرية التعبير حق كفله الدستور ، وأنه لا ولاية للحكومة على الصحافة ، بل الأكثر من هذا إمعاناً

واسترسالا فى مسلسل إهانة المسلمين إعلان البرلمان الأوربى - الواضح والشديد اللهجة — عن تضامنه مع الدنمارك وغيرها من الدول التى طالتها ردود المسلمين الغاضبة ، وشدد مكرراً على أن الدول التى شهدت أعمال عنف وتظاهرات ضد نشر الرسوم ، هى أمكنة تشهد فى شكل منتظم انتهاكا لحرية التعبير ، وهو قول ينطوى على عدة مغالطات ، منها : أنه لا توجد حرية مطلقة — وهو ما تعارف عليه المجتمع الدولى بكل أطيافه - ؛ إذ حريتك تنتهى حيث تبدأ حرية غيرك ؛ فلا يجوز نشر الخصوصيات باعتبار أن ذلك حرية ، ولا ينبغى الإساءة إلى المقدسات الدينية بحجة الحرية ، لأن المقدسات الدينية لا يجوز الاقتراب منها ، مهما كانت الدوافع والملابسات ، وهناك أسرار تحرم قوانين الدول نشرها ، حفاظاً على سلامة المجتمع ، وصوناً للأمن العام . كما أن ادعاء حكومة الدنمارك بأن ما نشرته الصحيفة هو من باب حرية التعبير ، وأنه لا ولاية للحكومة عليها ، وأنه لا يمكن بأى حال فرض وصاية على الإعلام ، يدحض كل هذا محاكمة المؤرخ "ديفيد إرفنج" ، فقد اقتيد إلى ساحة المحكمة بسبب ما قاله فى محاضرة ألقاها فى عام ١٩٨٩م : " إن هتلر قدم المساعدة ليهود أوربا ، وأن كل ما يتردد حول المحارق وأفران الغاز ليس سوى **خرافة** ." ، وحكم عليه بثلاث سنوات بتهمة التعبير عن رأيه فى أمر **غير مقدس** ، وهو محرقة اليهود فى أفران الغاز فى ألمانيا الهتلرية .

أين اختفت حماية حرية التعبير فى هذه المحاكمة ؟ ، ومن قبل حوكم "جارودى" لأنه شكك فى عدد ضحايا الهولوكست . **أين كان الدفاع عن حرية التعبير فى مسألة تاريخية ، من طبيعتها الاختلاف فيها ؟** ؛ فهى ليست

نصوصاً مقدسة ، وليس لها من الأدلة والبراهين ما يرفع درجة اليقين فيها إلى مرتبة المقدسات الدينية !

" لقد كان هذا المسلك الدنماركى خصوصاً والمسلك الأوربى الصحفى عموماً درساً من دروس الحماقة السياسية ! وإذا كنا من قبل – من باب النقد الذاتى – نقدنا الحماقة السياسية العربية باعتبارها تعبر عن حماقة المتخلفين ، إلا أننا لم ننس أن ننقد أيضاً حماقة المتقدمين التى ضربنا لها مثلا ، الحماقة السياسية الأمريكية فى غزوها العسكرى للعراق وفى استخدام الإرهاب للقضاء على الإرهاب .

وها نحن اليوم نواجه بحماقة سياسية صارخة أشعلتها الدنمارك وجرت وراءها الصحافة الفرنسية والألمانية والتى شاركت جميعاً فى استفزاز مشاعر الشعوب الإسلامية ، والتى أدت إلى مظاهرات حاشدة ، وإلى مقاطعة للمنتجات الدنماركية . وهكذا تحولت هذه الحادثة المنفردة التى كان يمكن احتواؤها لو حكمت كل من الصحيفة الدنماركية والحكومة الدنماركية العقل وقدمت الاعتذار المناسب فى الوقت المناسب . والواقع أننا الآن نشهد حالة نموذجية لما أطلق عليه صمويل هينتنجتون " صراع الحضارات " وإن كان من الأسلم أن نسميه " صراع الثقافات "

وإذا كانت الثقافة الأوربية قد قامت منذ قرون بثورة ثقافية ضد تعسف الكنيسة ، وأعلنت الفصل بين الدين والدولة ، إلا أننا فى مجال الثقافة العربية الإسلامية لا نعتبر أن السخرية من الأديان – أيًا كانت – أو ازدراؤها يعد من حرية التعبير ! بل إن تشريعاتنا الجنائية تعتبر هذا الازدراء جريمة يعاقب عليها القانون . ونحن نعتقد فى حكمة هذا الاتجاه ، لأن المساس بالعقائد الدينية التى يؤمن بها ملايين البشر مسألة بالغة الخطورة على الاستقرار الاجتماعى ، ومما

يساعد على بلورة هذا الاتجاه لدينا ، أن الإسلام يعترف بالأديان السماوية السابقة عليه ، ونعنى اليهودية والمسيحية ، ولذلك يمكن القول أن التطرف الفكرى والحماقة السياسية قد اشتركا فى إشعال هذا الصراع الثقافى الحاد بين أوربا والعالم الإسلامى مما ينذر بعواقب كارثية اقتصادية وسياسية وثقافية على كل الأطراف ." [1]

إذا كانت هناك رغبة حقيقية وجادة عند من ينادون بالحوار الحضارى لتحقيق سلام عالمى بين كل الأمم والشعوب ، حتى تختفى الحروب الصغيرة والكبيرة ، فيجب على المتحاورين من الثقافات والحضارات المختلفة أن يراعوا حق الإنسان — أى إنسان على وجه الأرض — فى الحفاظ على إنسانيته التى كرمه الله بها ؛ فإهانة الأرواح والأعراض مرفوضة فى الإسلام بالنسبة للناس جميعاً ، فما بالك بالمقدسات ورموز الأمم الدينية ، ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن تتضمن حرية التعبير سب الآخرين والاستهزاء بمبادئهم ورموزهم ، فإن ذلك يجرح شعورهم ، ويقيم سداً منيعاً بينهم وبين الحوار مع الآخر ، فالحوار البناء يقوم على وصل حبال الود ، والتداعى إلى كلمة سواء ، والتعاون على الخير ، والانطلاق من خندق واحد لمواجهة أخطار عديدة مشتركة ، تهدد الكيان الإنسانى كله على اختلاف عقائد أهله ، وألوانهم ، ومصالحهم القريبة ، فلا يؤتى الحوار ثماره إلا إذا كان قائماً على اعتراف جاد وأمين بالآخر ، فلا جدوى منه ، ولا فائدة فيه ، إذا كان بعض أطرافه يتعالون على سائر الأطراف ، أو إذا سمح أى طرف بإهانة الآخرين وسب رموزهم .

يرى المسلمون أن الحوار الحضارى فريضة ؛ لأن دعوة الإسلام عالمية ، لا تخص جنساً ، ولا لوناً ، ولا عرقاً ، ولا بلداً معيناً ، فالخطاب القرآنى يتوجه فى

---

[1] السيد يسين : تطرف فكرى وحماقة سياسية : الأهرام ٩ فبراير ٢٠٠٦

الكثير من آياته إلى البشر جميعاً ، مؤكداً على التعايش السلمى ، والإخاء الإنسانى مستهدفاً خير وتقدم ونماء الإنسانية كلها .... هذا فضلا عن أن الدعوة إلى الحوار ، والالتقاء بالآخر ، ومجادلته التى هى أحسن دعوة قرآنية ، وتكليف شرعى قائم ، يقول الله تعالى : " **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ ..** " [آل عمران : ٦٤] ، ومن هنا يجب أن نبادر — نحن المسلمين — بالدعوة إلى الحوار ، والإسهام فى مجالاته المختلفة ، وتنوعاته الفكرية المتعددة ، امتثالا لأمر الله تعالى فى كتابه العزيز : " **ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** " [النحل : ١٢٥] ، ولكى ينجح هذا الحوار ينبغى أن تسهم فيه جميع الدوائر والمؤسسات التى تعنى بالفكر الإنسانى ، وكذلك التى تستهدف حفظ الأمن والسلم على المستويين : الإقليمى والدولى .

ينبغى أن يكون خطابنا فى مواجهة الآخرين خطاباً حضارياً متكاملا ، وفى مقدمة الخصائص التى تكسب الخطاب طابعاً حضارياً اتسامه بالواقعية ، أى ارتباط الخطاب بحركة الواقع الراهن إسلاميًّا ودوليًّا ، بإشكالياته وقضاياه وتحدياته ... وعلى ذلك يبدو ضروريًّ أن يمتلك الخطاب القدرة على فهم الواقع ، والتعرف عى عناصره ، ومكوناته ، وقواه المختلفة ، وتطوراته ، ومتغيراته ، وتحولاته المتسرعة بأشكالها وصورها ، وميادينها المختلفة ، والتى تفرض أوضاعاً محلية ، وإقليمية ، ودولية جديدة تتطلب الحاجة إلى إدراكها والتعامل معها ، وأن يعمل على صياغة تصورات ، ومفاهيم ، وحلول ملائمة

تستجيب لمتطلبات واحتياجات النهوض بهذا الواقع ، انطلاقاً من المبادئ والقيم الإسلامية .[1]

إن تبادل المصالح هو الذى يحدث التوازن بين طرفى معادلة الحوار والتعاون ، ولا بد لحدوث هذا التوازن من وجود قوة وراءه ، والقوة الوحيدة للمسلمين فى الوقت الحاضر تتمثل فى التضامن ، وجمع الكلمة ، وتوحيد الصف ، وبذلك يكتسب الحوار حرارة وقوة ، ويصبح الحديث عن التعاون الثقافى حديثاً مؤدياً إلى الغاية ، محققاً للهدف . ولا يكون ذلك إلا إذا قامت بهذه الرسالة هيئة ، أو مؤسسة ، أو منظمة عربية — أو إسلامية — مشتركة ، أعضاؤها من ذوى الخبرة ، والتصور الصحيح ، والرؤية المستقبلية السليمة ، تدعمها الحكومات ، دون أن تملى عليها هذه الحكومات علاقاتها المتقلبة فيما بينها ، ولا علاقاتها الخارجية ، وعلى أن تترك لها حرية التحرك فى نطاق مصالح المسلمين ..... إذ من غير الطبيعى أن نستمر فى علاقات يواجهنا فيها غيرنا بمواقف موحدة ، أو متقاربة ، وبتصورات ، وخطط واضحة ، ونظل نحن متفرقين ، دون وضوح فى التصورات والخطط ، بل ربما كنا أحياناً نُقْبِل على الندوات والمؤتمرات دون إعداد كاف ، ودون أن نعرف ما نريد ، فتذهب مشاركتنا أدراج الرياح ، وحين يعود ممثلونا ، ووفودنا بشيء ذى قيمة — وما أقل ما يحدث ذلك — فإنه يضيع فى غياهب الأدراج . أما قيام هذه الهيئة أو المؤسسة المستقلة ، فإنها تضع الخطط والبرامج ، ثم تتولى التنسيق والمتابعة . وكل عمل ليس له متابعة هو عمل منقطع ، يضيع دون الوصول إلى غايته ، وما أكثر الأعمال التى تبدأ ، ثم لا تنتهى إلى شيء .

---

[1] الإسلام ومستقبل الحوار الحضارى ص ١٦ إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

يجب على المشاركين فى حوار الحضارات من الجانب الإسلامى ألا يشعروا بالنقص فى مواجهتهم لمن يملكون زمام الحضارة فى العصر الحديث ؛ فهم – المسلمون – أصحاب حضارة كبرى– كما بينا سابقاً – ، ملأت أسماع الدنيا ، وسيطرت على مجريات الأحداث فى العصور الماضية ، بل إنهم لا يزالون يملكون من العناصر الحضارية ، ما يؤهلهم للوقوف جنباً إلى جنب مع صناع الحضارة الحديثة ، فما زالوا يملكون جانباً كبيراً ومهماً فى البناء الحضارى ، ألا وهو الجانب الإنسانى : المبادئ الأخلاقية ، القيم الروحية ، أسس العدل ، المساواة بين البشر ؛ إذ لايفرقون بين الناس على أساس اللون ، أو الجنس ، أو العقيدة ، فالكل سواء فى خلفياتهم الثقافية ، وتعاليمهم الدينية ، أضف إلى ذلك أن أبوابهم مفتحة على الثقافات الأخرى ، يقبلون الصالح منها ، مهما كان مصدرها ، وعلى أى أسس ارتكز بنيانها ، ومن أى منبع انحدر تيارها . فقبول التنوع الثقافى والفكرى مبدأ من مبادئ الفكر الإسلامى ، والتعامل مع المخالفين – فكريًّا – سمة واضحة فى الثقافة الإسلامية . فإذا كان الطرف الآخر يحس بالتفوق المادى والتكنولوجى ، فإن الجانب الإسلامى يملك زمام الجانب الآخر من الحضارة ، ألا وهو التفوق الروحى ، وقبول الثقافات الأخرى دون تعصب أو تحيز ، فضلا عن أن استعادة سيطرة العالم الإسلام على مجال التكنولوجيا الحديثة ليس مستحيلا ، فهذا أمر لا يحتاج إلى طبيعة عقلية خاصة ، بل يتطلب نوعاً من الخبرة وتوجيه الخبراء ، يقول المفكر الإنجليزى " هيلير بيلوك Hilere Belloc " : " لا يساورنى أدنى شك فى أن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها برباط متين ، وتتماسك أطرافها تماسكاً قويًّا ، وتحمل فى طياتها عقيدة مثل الإسلام ، لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب ، بل ستكون أيضاً خطراً على أعدائه . من الممكن أن يعارض المرء هذا الرأى بأن الإسلام فقد سيطرته

على بعض الأشياء المادية..... فهو لم يلحق بالتقدم التكنولوجى الحديث . لا أستطيع أن أدرك : لماذا لم يعوض الشرق الإسلامى ما فاته فى هذا الميدان ...؟ فلا تحتاج علوم الهندسة الحديثة إلى طبيعة عقلية خاصة ، بل يتطلب الإلمام بهـا ، والتفوق فيها إلى الخبرة وتوجيه الخبراء . ومن الأمور المؤكدة أنه - غالبـاً - مايحدث أن تكون حضارة ، ذات منزلة عالية فى التقدم التكنولوجى، أقل درجة من حضارة أخرى ، لم يبلغ بعد تطورها فى هذا المجال مـا بلغتـه الأولى . إذن فهناك احتمال كبير أن يصبح شعب - ظهر حتى الآن ، أن مواهبه فى الناحيـة التكنولوجية ضعيفة - فى المستقبل سيداً على شعب آخر استولت التكنولوجيـا على حواسه ومشاعره - فلم ينقذه أحد - ، وتحكمت فى سلوكه النظريـات ، التى تسلب الإنسان الإحساس بالطبيعة . لماذا لا يتعلم العالم الإسلامى ما تعلمناه فى مجال التكنولوجيا ؟ ... (فإن حدث هذا) فسوف يكون من الصـعب علينـا استعادة التعاليم الروحية - وهى من العوامل الأساسية لوحدة الشـعوب - .... بينما لم يزل الإسلام يحافظ عليها ....." [1]

كما يجب على الآخر أن يقبل الحوار على أساس المساواة ، ولا تعـالى ، ولا شعور بالأفضلية ، ولا استهداف إخضاع المسلمين لإرادته وتوجهاتـه ، ولا نية لفرض ثقافته ونظمه فى الحياة على المجتمع الإسلامى ، بل حوار متساوٍ بـين الطرفين ، يستعد كل طرف فيه أن يسمع من الآخر ، ليعرف وجهة نظره ، دون الدخول فى المسائل العقدية ، التى لا يمكن التسليم به من طرف للآخـر ، إلا إذا وصل إلى التنازل عن عقيدته واعتناق عقيدة الآخر ، أظن أن هذا لن يحـدث - بأى حال من الأحوال - من الجانب الإسلامى .

---

[1] باول شمتز : الإسلام قوة الغد العالمية ، ترجمة : محمد شامة صـ ٣٣٣

كما ينبغى أن يتضمن الحوار المسائل التى يساعد التحاور فيها على إقرار السلم فى المجتمعات الإنسانية ، وتحقيق العدل بين الأمم والشعوب ، وحفظ الأمن والسلم بين دول العالم ، والعمل على تحقيق المساواة بين الناس على جميع المستويات الإقليمية والدولية . ومن المسلم به ألا يكون الحوار منحصراً بين الجدران ، بل ينبغى أن يبحث المتحاورون عن آليات نقله إلى العامة ، وتفعيل أهدافه على جميع الأصعدة : سياسية ، واجتماعية ، وثقافية ، واقتصادية ، وإلا أصبح الحوار عديم الفائدة ، إذ لن يخرج عن اجتماعات ، على شكل ندوات ، ولقاءات ، ومؤتمرات ، يصدر عنها قرارات ، لا يتعدى أثرها حيز الصفحات التى كتبت عليها ، ولا يكون لها صدى إلا بمقدار ما تضفى عليها وسائل الإعلام من هالات وصلصلات .

ومن نافلة القول إعلان العامة والخاصة أن المسلم — بتأثير مبادئ الإسلام فيه – يقبل الآخر ، ويتعامل معه بأسلوب حضارى ، ويحترم عقائده ، ويضمن أمنه وحمايته فى المجتمع الإسلامى ، ويأخذ من ثقافته وإنجازاته ما لا يتعارض مع المبادئ الإسلامية ، وتلك هى قمة ما وصلت إليه الحضارة الإنسانية فى الجانب الأخلاقى .